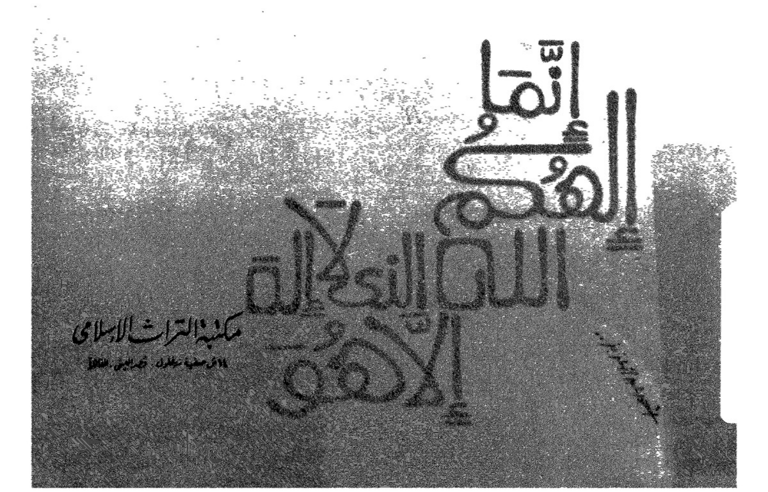
الشيخ الإمام داعية الإسلام

محمد متولي الشعراوي

مريم والمسيح عليهما السلام



مكتبة التراث الإسلامي



جمع وإعداد وترتيب

عبد القـادر أحمد عطـا

مكتبة التراث الإسلامي

١٤ ش صفية زغلول . قصر العيني . القاهرة

تليفون ٣٥٥٣٨٣٨

مكتبة التراث الإسلامي
القاهرة
عبد الله حجاج
ت : ٣٥٥٣٨٣٨

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لم يرسل الله سبحانه الى أمة من الأمم عدداً من الرسل قدر ما أرسل الى بنى إسرائيل ٠ ولم يقم الحجة بالآيات الواضحات ، والبينات الغيبيات مثلما أقامها على بنى إسرائيل ٠

وبرغم كل ذلك فالقوم هم القوم ، حرفوا كل الشرائع والكلمات حتى تتناسب مع ميولهم وأهوائهم ، حتى الله سبحانه وتعالى حرفوه من حق غير محسوس ولا مدرك بالأفهام الى إله شعبى يشبه زعيم الحزب السياسى ، ينزل على رأى الأغلبية ويسعى الى صالح الطبقة والعنصر ، ويحب رائحة الشواء ، ويلعب مع حيتان السمك فى البحر ٠

ومنذ عهد نبى الله يعقوب والحرب بين الوثنية والوحدانية الغيبية قائمة ، حتى إنه عليه السلام قام بحملة تفتيشية ، وجمع كل الآلهة المنزلية ، ثم دفنها كلها عند البطمة التى عند « شكيم » كما هو وارد فى العهد القديم ٠

ويذكرنا القرآن الكريم بأنهم كانوا يعبدون إلهاً يسمى « البعل » وذلك فى قوله تعالى :

❁ (أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين) ❁

وهذا البعل هو ما جاء فى التوراة باسم « البعليم » ٠

وكانت آخر الآيات هى ظهور المسيح بن مريم العذراء وحدها بلا أب ٠ وعلى غير الوظيفة التى أرادها بنو إسرائيل ، إذ كانوا يريدون مسيحاً بالفعل ، ولكنهم كانوا يريدونه ملكاً زمنياً يحكم العالم باسمهم ، لا أن يكون رسولا يحكم القلوب باسم الله الواحد الأحد ٠

وواجهوا هذه الآية باتهام العذراء بالخنا والفحش ، وبرفض المسيح وانتظروا مسيحهم المزعوم ، حتى قالت طائفة من طوائفهم المتأخرة ، وتدعى « شهود يهوه » إنه قد بعث بالفعل فى عام ١٩١٩ من الميلاد ، وإنه

قد اختار معاونيه لحكم العالم باسم اليهود ، وإنه فى فلسطين يقيم فى مغارة ، ولا يلقاه إلا من يدرب على ذلك على أيدى الخبراء من أهل هذه الجماعة • وسجلوا كل هذه الأوهام فى كتاب من كتبهم اسـمه « الحق يحرركم » طبع فى بروكلين بعدة لغات ، والطبعة العربية مليون نسخة •

تلك لمحة سريعة عن أثر المسيح فى عقيـدة اليهود ، إذا تجاوزنا عن السباب البشع الذى صبوه عليه وعلى أمه عليهما السلام •

وكان رد الفعل عند أحباب المسيح وأتباعه تطرفاً ناشئاً عن حب ، كما كان رد الفعل عند أعدائه تطرفاً ناشئاً عن بغض •

ولما كان القرآن الكريم يؤكد أن النصارى هم أقرب الناس مودة للمؤمنين ، فإن هذا الكتاب الذى نقدمه للقراء هو ثمرة هذه المودة التى يؤمن بها المسلمون ، ويدينون بها نحو أتباع المسيح عليه السلام •

*** (ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون) * •**

ولقد عبر المسلمون عن مودتهم لأتباع المسيح حينما هزموا بأيدى الفرس ، فحزن المسلمون حزناً شـديداً ، لأن أهل كتـاب هزموا بأيدى وثنيين من عباد النار وسجل الله تعالى هذا الحدث فى أول سـورة الروم فقـال :

*** (غلبت الروم * فى أدنى الأرض وهم من بعـد غلبهم سيغلبون فى بضـع سـنين) * ٣**

وما وصايا أبى بكر لجيوشه برهبان النصارى عنا ببعيد ، وما عهد بيت المقدس بين عمر وصاحب بيت المقدس بغريب على أذهاننا ، الى جانب عشرات الوقائـع والأحـداث التى تنطق بالمـودة بين المسـلمين والنصارى ، وحرصهم عليهم ، وخوفهم على أخراهم •

ولئن كان اليهود قد نجحوا مؤقتاً فى بذر بذور الفرقة بين الفريقين فإنه نجاح مؤقت ما تلبث الأحداث أن تدمره ، وتعيد اليهما الوئام والمودة ، لا سيما عند الأحداث السياسية التى تبدو فيها النوايا التى لا تتجه نحو المحبة والحياة الآمنة ، وإنما نحو تمكين عنصر واحد من بقية عناصر الأرض ، ليأخذ بخناق الجميع ، ويستذلهم ، ويستولى على مقدراتهم الى الأبد باسم العنصر المختار •

ليس الجدل من طبيعة أتباع المسيح ، ولكن طبيعة أتباع المسيح هى ما قرره القرآن الكريم من أنهم كانوا اذا سمعوا ما أنزل الى الرسول تولوا وأعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق •

وإنما الجدل هو طبيعة اليهود ، وقد عرض علينا القرآن نماذج من جدلهم ، ومنها موضوع البقرة ، مما يؤكد لنا أن ما أصيب به أتباع المسيح من الجدل إنما هو داء يهودى لا يلبث أن يزول ، ليعود أتباع المسيح الى طبيعتهم التى تستجيب للغيب ، وتؤمن بالتواضع وعدم الكبرياء •

وهذا الكتاب من أحاديث فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى المسجلة بصوته ، وأصوله تحت أيدينا ، وليس لنا فيه سوى التبويب وإعداد الأسلوب ليكون أسلوب كتاب لا أسلوب حديث الى الجمهور ، فالحديث الى الجمهور يختلف عن الحديث فى كتاب كما هو معلوم للجميع •

لا تغيير فى كلام الشيخ ، وإنما هو تقديم وتأخير ، وحذف للمكررات واستبدال كلمة عامية اقتضاها المقام بكلمة عربية يقتضيها المقام •

والله نسأل أن يجعله خالصاً لوجهه ، وأن يدوم الوئام بين أتباع المسيح وأتباع محمد عليهما الصلاة والسلام •

عبد القادر احمد عطا

آل عمران المصطفون

معنى الاصطفاء :

قال الله تعالى :

﴿ إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين * ذرية بعضها من بعض ﴾ [1] .

كلمة (اصطفى) تدل على اختيار يرضى . وبمعنى : خصه بنفسه ، أو أخذه صفوة من غيره ، فهى على أى حال تدل على الفضل العظيم .

وهنا سؤال : هل معنى الآية : أن الله اصطفاهم فكانوا طائعين من أجل هذا الاصطفاء ؟ أم أنه سبحانه وتعالى علم أزلا أنهم سيكونون طائعين فاصطفاهم ؟

والجواب : أن علم الله علم أزلى ، وليس علماً مترتباً على غيره ، ولنت ساعة تأتى بقانونك البشرى ، وتولى إنساناً أمراً فينجح فيه ، تقول : ألم أقل لك إن فراستى صحيحة ؟ فإذا كان هذا فى البشر فما بالك بالله سبحانه وتعالى ؟

إذن فاصطفاء الله لآل عمران مع آدم ونوح وآل إبراهيم إنما كان لأنه علم أزلا أنهم سيكونون أخياراً ، أو أنهم كانوا أخياراً فى النفس العامة ، وسيكونون أخياراً حين يكلفون فى النفس الخاصة .. هم أخيار قبل التكليف ، لو تركتهم لعقولهم لكانوا أخياراً .

* * *

لماذا كان اجتباء الرسل ؟

وآدم حين خلقه الله ، وضع له التجربة التكليفية فى الجنة ، كان الواجب أن ينقل ما علمه لأبنائه . لماذا نقل إليهم صيانة مادتهم من الطعام

---

(١) سورة آل عمران الآيتان : ٣٣ ، ٣٤ .

والشراب وغير ذلك ؟ فالقيم كانت لابد أن تكون مع هـذه المبـادىء ، فهل أدى آدم ؟

أدى ، ولكن بمرور الزمان بهتت التكاليف رويداً رويداً حتى تنسى ، فالله من رحمته يجدد ، ويرسل رسولا برسـالته تمطى من كان موجوداً أولا ما يتعلق بالعقائد والأخبار التى لا تتغير ، أمـا الأحكام فيأتى فيهـا بالأحكام المناسبة للزمن ، فاذا ما أمكن للبشر أن يعدلوا من سياسة البشر يبقى الأمر على مـا هو عليه •

أى إن الناس حين يفعلون المنكر يجدون أناساً يقومون فى وجوههم ، ويضربون على أيديهم ، فإن الحياة ما زال فيها الخير ، لأن مصاف اليقين فى النفس البشرية تأتى من أشياء ، هناك من توجد مصاف اليقين فى ذاته ، أى لا يكون قادراً على نفسه ، فيعمل المعصية ، لكن تلومه نفســه فيرجع عنها ، فالمصاف اليقينية هنا فى نفسه •

وأحياناً تكون المصاف اليقينية فى غيره ، فى الآمر بالمعروف والناهى عن المنكر ، فإذا امتنعت المصاف الاجتماعية وكانت المصاف الذاتية ممتنعة ولم يعد أحد يأمر بمعروف وينهى عن منكر ، فهنا لابد من رسول ينبـه النـاس بمعجزة •

وفى الرسالة المحمدية لمـا ختمت بها الرسالات ، فهذا إعلام من الله تعالى بأن المصاف الذاتية حين تمتنع فى هذه الأمة ، فلن تمتنع المصاف الاجتماعية ولابد أن تكون هـذه المصاف فى الأمر بالمعـروف والنهى عن المنـكر •

وإلا فقـد كان لابد من رسول آخر ، وهـو لا يكون أبداً ، لأن الرسالات قد ختمت بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ولأن الله أمن هـذه الأمة بألا تمتنع فيها المصاف الاجتماعية ، ولذلك قال تعالى :

﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعـروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾ [1] •

---

(١) سورة آل عمران : آية ١١٠ .

ومعنى هذا أن المصافى الاجتماعية ستظل موجودة ، إذن فإن الغفلة حدثت بعد نوح ، فحصلت الاصطفاءات .

* * *

من هم آل عمـران :

جاء فى القرآن الكريم أن مريم هى ابنة عمران . فقال تعالى :

﴿ ومريم ابنة عمـران التى أحصنت فرجهـا فنفخنا فيـه من روحنـا ﴾ [1]

وجاء فى القرآن كذلك أن الله اصطفى آل عمران على العالمين كما فى الآية التى ذكرناها فى الفقرة السابقة .

ومن المعلوم أن موسى عليه السلام هو موسى بن عمران ، وله أخت تسمى مريم ابنة عمران . فأى العمرانين وأى المريمين يريد الله باصطفائه ؟

أما عمران أبو موسى فأبوه يصفر ، بن قاهث ، بن لاوى ، بن يعقوب ابن إسحاق بن إراهيم .

وعمران أبو مريم هو ابن ناثان ، بن سليمان ، بن داود بن إيشى ، ابن يهوذا ، بن يعقوب ، بن إسحاق ، بن إبراهيم .

لقد حدث إشكال بين الدارسين فى العمرانين ، من الذى يريد الله باصطفاء آله .

وحين اختلف الدارسون لم يفطنوا الى أن القـرآن نبههم الى أن المقصود هو عمران أبو مريم ، لأن السياق هو سياق مريم أم المسيح ، لا مريم أخت موسى ، ولأن الله تعالى قال : **(وكفلها زكريا)** [2] . وزكريا كان أبوه معاصراً لناثان ، وهو مع ذلك زوج خالة مريم العذراء . وعلى هذا قد انتفى الإشكال بين مريم أخت موسى ومريم العذراء أم المسيح .

ذريات مصطفاة :

أخبر الله تعالى فى سياق اصطفاء من اصطفاه أن هؤلاء المصطفين

---

(١) سورة التحريم ، آية : ١٢ .

(٢) سورة آل عمران ، آية : ٣٧ .

(ذرية بعضها من بعض) فهل المراد ذرية النسب ، أم ذرية القيم والهدايات ؟

لقد علمنا فى قصة إبراهيم أن أنساب الدم لا اعتبار لها ، وإنما الأنساب المعتبرة هى أنساب القيم والدين ، وذلك حين قال الله تعالى :

* (وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن) * فلما أتمهن قال له :
* (إنى جاعلك للناس إماما) * . فقال إبراهيم : (ومن ذريتى) *
فقال الله تعالى له :

* (لا ينال عهدى الظالمين) * (١)

لقد ردها الله عليه . وتقرر حينئذ أن قوله تعالى : (إماما) أى مقتدى فى الهدايات ، وعليه فالذرية هى ذرية الهدايات .

ويمضى الحق فى تعليمه لإبراهيم حين وقف ودعا ربه أن يعمر الصحراء من أجل ولده اسماعيل فقال :

* (ربنا إنى اسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون) * (٢) .

أراد إبراهيم أن يطبق الحقيقة الأولى هنا فى مسألة الرزق . فقال الله تعالى له : (ومن كفر) . رداً على ابراهيم حين قال : (من آمن) .
يقول الله : أنا الذى استدعيتهم للوجود . فرزقهم عندى . إذن فالذرية ذرية الهداية . وحين يقول الله :

* المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض) * (٣) .

فليس المراد ذريات النسب . بل ذريات القيم .

* * *

(١) سورة البقرة ، آية : ١٢٤ .
(٢) سورة ابراهيم ، آية : ٣٧ .
(٣) سورة التوبة ، آية : ٦٧ .

منذورة حنــة

و « حنــة » هى أم مريم العذراء ، وقد وقفت لتناجى ربهــا فى صفاء وطهر ينم عن إيمان صادق فقالت :

❊ (رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محرراً فتقبل منى) ❊ [١] .

محرراً ، أى : غير مملوك . كما يقال : حررت العبد ، أى : جعلته يتصرف كيف يشاء ، لا سلطان لأحد عليه . وكذلك حررت الكتاب ، أى خلصته من الشوائب والزوائد وغيرها .

❊ ❊ ❊

المولود المحــرر :

ومطلب « حنة » من ربها أن يتقبل نذرها لما فى بطنها ، فيه مناجاة لله ، فما الدافع الى هذه المناجاة ؟

هى موجودة فى بيئة . وترى الناس يعتزون بأولادهم . ويعيشون ليحكموا حركات أولادهم ، وليحكم أولادهم حركاتهم ، وليكون الأولاد قرة عين لهم ، وعزا لهم فى الحياة . . وكل هذا لا تريده هى ، وإنما تريد أن يكون ما فى بطنها من الولد محرراً من كل هذا . أى لا تريد أن تربطه بذاتها ، ولا تربطه برعايتها ، لأن الإنسان مهما بلغ من اليقين فإنه بحكم الميل الى أولاده يمكن أن يتجوز فى سلوكه .

ولكن كيف تتحكم امرأة عمران هذا التحكم فى ذات هى مثلها ؟

والجواب : أنه مــا دامت لهــا الولاية على تلك الذات فلها هــذا التحكم ، فإن بلغ الرشد خير ، فإما أن يجيز ما اختارته أمه ، وإما أن يرفضــه .

هى لا تريد قرة العين ولا غير قرة العين من مقاصد الولد ، بل تريده محرراً لخدمة البيت المقدس ، مطلباً أن يكون محرراً ، وأن يكون ذكراً ، لأن خدم البيت كانوا من الذكور .

---

(١) سورة آل عمران ، آية : ٣٥ .

والنذر أمر أريد به الطاعة فوق تكليف مــا كلف المكلف ، من جنس ما كلف المكلف .. فالله فرض عليك خمس صلوات ، فنذرت أن تصلى لله عشراً أخرى ، فأنت ألزمت نفسك أن تصلى أكثر مما ألزمك الله ، وممــا كلفك به ،ولكن من جنس ما كلفك المكلف .

فرض الله عليك صوم شهر من العام ، فنذرت أنت أن تصوم الاثنين والخميس من كل أسبوع ، فرض عليك اثنين ونصفا فى المائة زكاة المالك فنذرت أنت أن تخرج عشراً فى المائة ، أو تخرج مالك كله لله .

النذر إذن زيادة عما كلف المكلف ، ولكن من جنس ما كلفك الله .
ونذر حنة امرأة عمران يعتبر أمراً زائداً لخدمة البيت ، فهل هــو ينطبق على هــذا التعريف ؟ .

نقول : نعم . . لأن خدمة البيت واجبة على الجميع ، فإن قام بها البعض سقطت عن البــاقين ، وإن لم يقم بها أحد أثم الجميع ، فهى من التكليف ، ولكنه تكليف من فروض الكفايات .

والنذر يعطيك عشق العبادة لله ، لأنك لو لم تعشق ربك ، لما زدت على مــا كلفك .

* * *

مريم تحت التربية الربانية :

لقد علم الله تعالى إخلاص « حنة » امرأة عمران فى ندائها لربها .. فقد كانت عارفة بأسرار النداء والدعاء ، فنادت ربها قائلة « رب » . ولم تقل : إلهى ، لأن الربوبية يلاحظ فيها التربية من البــداية الى النهاية ، أما الألوهية فهى خاصة بما فيه تكليف .

كانت امرأة عمران تقصد بنذرها لمــا فى بطنها ألا تربيــه هى حتى يقدر على الخدمة ، بل كانت تقصد نذره من أول أمره ، بحيث لا تتنعم بطفولته كما تتنعــم الأمهــات . ومن هنــا جاءها الرد من الله من جنس ما سألت ، ودليلا على إخلاصها فى مطلبها ، وفى ندائها لربها .

لقد تقبلها ربها بقبول حسن . والقبول هو : أخذ الشىء برضــا ،

والحسن شيء فوق الرضا ستلمحه فى تربية مريم العذراء • هو ليس قبولا عادياً ، ولكنه قبول حسن • ولهذا قال تعالى :

﴿ وأنبتها نباتا حسنا وكفلها زكريا ﴾ [1] •

فالإنبات الحسن يحمل ملحظين فى حياة مريم :

أولهما : أنها كانت تحت التربية الربانية منذ بدايتها الأولى فى بطن أمها ، كما يرعى الفلاح نباته بالعناية والنماء •

ثانيهما : أن إجابة الله لامرأة عمران دليل على إخلاصها ، لأن الله اختص مريم بالتربية التى هى من خصائص الربوبية ، من الإنبات الحسن ، وكفالة زكريا لهـا •

* * *

الأنثى المنذورة مـريم :

كانت امرأة عمران تريد ما فى بطنها ذكراً محرراً لخدمة البيت ، فلما جاءت بأنثى رأت أن ما كانت تريده لن يكون ، فقالت :

﴿ رب إنى وضعتها أنثى ، والله أعلم بما وضعت ﴾ [2] •

يعنى : إن لم أتمكن من الوفاء ، فلان قدرك قد سبق فى أنه غير منذور •• هى لا تريد أن تخبر الله تعالى بأنهـا وضعت أنثى ، ولكنها تتحسر لأن الغاية من نذرها أن تتحقق ، ربما يسأل سائل فيقول : كيف تخـبر الله بأنها وضعت أنثى ؟ أو ليس الله يعلم بذلك ؟

نقول : بلى يعلم ، بل إنها كانت تحب أن يكون ذكراً منذوراً للبيت ، فهى تتحسر ، لأنها كانت أنثى ، فإن لم تقدر على الوفاء ، فلأن الله عز وجل قدر أن تكون الوليدة أنثى •

* * *

(١) سورة آل عمران ، آية : ٣٧ .

(٢) سورة آل عمران ، آية ٣٦ .

مريم فى خدمة العقيدة

ليس الذكر كالأنثى :

حينما تحسرت « حنة » امرأة عمران على ولادتها للأنثى ، جاء فى السياق قوله تعالى :

* (وليس الذكر كالأنثى) * [1] .

فى سورة آل عمران ، وهذه الجملة تحتمل أمرين :

أولهما : أن تكون من تمام كلامها ، حين قالت :

* (رب إنى وضعتها أنثى والله اعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى) * .

أى إن الذكر وحده هو الذى يصلح أن يكون منذوراً لخدمة البيت .

ثانيهما : أن تكون من كلام الله عز وجل ، فهو يقول لها : ليس الذكر الذى كنت تريدينه مثل هذه الأنثى ، بل إن لهذه الأنثى شأنا عظيما أعظم من شأن الذكور . ونرى أن هذا المعنى الأخير أنسب بالسياق .

يقول الله عز وجل لها : أنت تريدين ذكراً بمفهومك فى الوفاء بالنذر ، وليكون فى خدمة البيت ، وأنا وهبت الأنثى ، لكنى سأعطى بها آية أكبر من خدمة البيت ، سأخدم بها العقائد ، لن أخدم بها رقعة تقام فيها الشعائر ، بل سأخدم بها العقائد حتى تقوم الساعة ، لأنى سأعطى فيها آية ليست موجودة فى غيرها ، آية طلاقة القدرة الإلهية .

قمة الإيمان والخلق بلا سبب :

نعلم جميعاً أن القدرة تخلق بأسباب ، ولكن من أين تأتى الأسباب ؟ الله سبحانه وتعالى هو الذى يخلقها طبعاً ، فالذى يخلق شيئاً من سبب لابد أن يقدر على خلق نفس الشىء مجرداً عن السبب .

---

(١) سورة آل عمران ، آية : ٣٦ .

الأسباب خاصة بنا نحن عالم الخلق ، نحن الذين نعيش الأسباب والمسببات ، لكننا حين نسـأل : من أين جـاء السبب ؟ تكون الإجابة : السبب من الله سبحانه وتعالى • فنقول : ما دام هو خالقه فلماذا لا يخلق المسبب من أول وهلة ؟ ولذلك أعطانا طلاقة القدرة دليلا على أنه يقدر على ذلك ، لأن هناك قمما إيمـانية يجب أن تظل على بالنـا ، وفى بؤرة شعورنا دائمـا •

خلق الله بالأسباب ناسا مثلنا ، من أب وأم ، وجمهرة الخلق هكذا • وخلق من لا أب ولا أم ، وهو آدم عليه السلام •

هناك قسمة عقلية منطقية ، مـا دام هناك أب وأم ، ذكر وأنثى فسيأتى منهمـا تكاثر •

﴿ ومن كل شىء خلقنا زوجين ﴾[1] •

فالزوجان يجتمعان ، وهـذه الصورة الكاملة ، أو ينعدمان ، الأول معدوم والثانى موجود ، أو الثانى معدوم والأول موجود •

جمهرتنا من اجتماع الزوجين ، وآدم من عدمهما •• وطلاقة القدرة تقتضى أنه سبحانه كما يخلق المسبب من السبب ، يخلق المسبب من أول وهلة ، وانتهت المسألة •• وقد أخرج من المسبب المخلوق ابتداء وهو آدم أسباباً ، والأسباب تجتمع فى جمهرة النـاس ، وقد يكون ذكر ولا أنثى مثل خلق حواء ، وقد تكون أنثى ولا ذكر كما فى خلق المسيح •



(١) سورة الذاريات ، آية : ٤٩ .

أنوار هداية فى ميلاد مريم

حصانة ضد الشيطان :

حين اختلفت ظنون « حنة » امرأة عمران فى أن يكون مولودها ذكراً فى خدمة البيت فولدت أنثى تمنت أن تكون هذه الأنثى طائعة ، فسمتها « مريم » لأن كلمة « مريم » عندهم معناها : العابدة : فما فاتها فى أن تكون فى خدمة البيت حصلته فى أن تكون فى خدمة عقائدها ومنهجها •

وقد عرفت أمها بتجربتها أن المعاصى كلها تأتى من الشيطان ، وأن الذى يقدح فى العبودية هو الشيطان •• وبمقتضى العقلية الإيمانية الحاضرة التى تمتعت بها امرأة عمران أم مريم ، التى تستحضر المنهج كله فى ساعتها ، والتى تخشى على ابنتها مريم ، قالت :

﴿ وإنى سميتها مريم وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ﴾ (١)

وذلك من أجل أن يكون الاسم الذى اختارته لها وهو « مريم » ومعناه : العابدة على مسمى حقيقى •

هناك مستعاذ هو الله ، ومستعاذ منه هو الشيطان ، والشيطان يدخل مع خلق الله فى عراك ، ولكنه لا يستطيع أن يدخل مع الله فى عراك أبداً ، ولذلك جاء فى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم : أن الشيطان يخنس إذا ذكر الله • "لأنه خناس جبان ، لا يقوى على مواجهة اسم الله •

إذن فمتى ينفرد الشيطان بالإنسان ؟ ينفرد به إذا كان بعيداً عن الله سبحانه وتعالى ولذلك قال تعالى :

﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم ﴾ (٢) •

أرهبه بهذه الكلمة ، وحين تواجهه بهذه الكلمة ، ويعرف أنك مواظب عليها ، يعلم أنك تعلمت ما يحرقه ، فيبتعد عنك •

---

(١) سورة آل عمران ، آية : ٣٦ • (٢) سورة الأعراف ، آية : ٢٠٠ •

وقد أرشدنا الرسول صلى الله عليــه وسلم الى تحصين ذرياتنا من الشيطان الرجيم ، فالإنسان اذا ما جاء أهله ، ومجىء الأهل مظنة حصول الولد ، فيقول الانسان عند لقائه أهله : « اللهم جنبنى الشيطان ، وجنب الشيطان مــا رزقنى » •

فمن قال هــذا ، وجاء من هذا اللقاء مولود ، فان الشيطان لا يكون له سبيل الى هذا المولود أبداً •

ونحن نلاحظ أن امرأة عمران قالت فى تعويذها لابنتها مريم :

* (وإنى أعيذها بك وذريتها) * •

ولم يكن لها ذرية سوى المسيح عليه السلام ، ولكن الذرية كلمــة تطلق على الواحد والاثنين والثلاثة ، وعليه فالسياق صحيح •

* * *

تربيــة فوقيــة :

الله سبحانه وتعالى هو الذى تقبل مريم ، وهــو الذى أنبتها نباتاً حسناً ، وهو الذى كفلها زكريا ، وذلك فى قوله تعالى :

*** (فتقبلهــا ربهــا بقبــول حسن وأنبتها نباتا حســـنا وكفلها زكريا) *** [1] •

وهذا دليل على أن مريم من فوق •

وساعة نجد الناس يقترعون على شىء ما ، فالناس قد خرجوا عن مراداتهم فى هذا الشىء الى مراد الله سبحانه وتعالى • هناك شىء نختلف عليه ، فنقترع عليه ، لأمنع هواى وهواك ، وأخرج الى مراد الله • وهــذا هو ما حصل عند كفالة زكريا لمريم • وفى هــذا يقول الحق سبحانه :

*** (وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون) *** [2] •

---

(١) سورة آل عمران ، آية ٣٧ .
(٢) سورة آل عمران ، آية ٤٤ .

أى إن هذه المسألة كانت لها ضـــجة ، ووقعت فيها خصـــومة ، وهم لا يلجأون الى القرعة إلا اذا اختلفوا ، وكل واحد يريد كفالتها لنفسه •

ومن فضل الله أن زكريا كان متزوجا من « إيشاع » أخت « حنة » أم مريم العذراء ، فهو زوج خالتها •• ولما خرجوا عن مراداتهم الى مراد الله بالقرعة أخذها زكريا دون غضاضة من أحد •

والاقتراع قاعدة عامة ماضية حتى عند الأنبياء ، فسيدنا يونس عليه السلام حين كان فى السفينة ، وخاف الناس أن تغرق لثقل حملها ، كان لابد أن ينزل واحد من ركابها ، فاقترعوا ، فجاءت القرعة على ســـيدنا يونس ، وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

❋ (فساهم فكان من المدحضين) (١) •

جاء سهم سيدنا يونس ليخرج الى السعة العليا ، ولو لـــم تـــكن القرعة لقامت معركة فى السفينة •

❋ ❋ ❋

انى لك هـــــذا ؟

لـــا كان زكريا كافلا لمريم ، فكأنه تولى كل مهمتها ، وهو الذى يرعى كل شئونها ، ولكن القرآن الكريم يسجل حقيقة فوق الأسباب فى قولـــه تعـــالى :

❋ (كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا) ❋ (٢) •

لم يلاحظ زكريا هذه الحقيقة مرة واحدة ، ولكن فى كل مرة يدخل عليها يلاحظها ، فحين كان يجد عندها هذا الرزق ، والرزق أول المطلوبات من الكفيل ، وهذا الرزق الذى كان يجده ، هو غير الرزق الذى كان يأتيها به ، ففى هذه الحالة لابد أن يسأل ، وقد سأل فقال :

❋ (يا مريم أنى لك هذا) ❋ (٣) •

---

(١) سورة الصافات ، آية : ١٤١ •
(٢) سورة آل عمران ، آية ٣٧ •
(٣) سورة آل عمران ، آية ٣٧ •

وهذا دليل على أن زكريا كان يغلق الأبواب على مريم ، فلو كانت الأبواب مفتوحة لما سأل ، لأنه يحتمل أن أى أحد وضعه عندها .

اذكروا مـا قلناه مراراً ، من أن أى واحد متوكل بجماعة ، ثم يرى عندهم أى شيء أزيد مما يأتى به ، أو أزيد من طاقته ، أو أزيد من دخله ، لابد أن يسألهم : من أين جاء هذا ، كما سأل زكريا مريم العذراء .

وإلا فسفساد البيوت كلها من هذا التغافل ، من هذه « التطنيشة » . يرى الرجل ابنته تلبس مالا يفى به دخله ، والولد ينفق مالا يسعه دخله ، والزوجة تعد فى البيت من الطعام مالا يستطيع الوفاء به ، فلا يسأل ، فيكون الفســاد دون شــك .

فلو أن كل انسان سأل أهل بيته عند زوائد نفقاتهم من أين هى ، لأوقفنا الفســاد ، وصلحت البيوت .

وأجابت مريم زكريا بقولها كما جاء فى القرآن :

﴿ هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ (١) .

حين قالت : **﴿ هو من عند الله ﴾** لم تدع البديهية الإيمانيــة إلا أن تتحرك عند زكريا ، فقالت : **﴿ إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾** . إنه يرزق ويفعل بكلمة « كن » وليس رزقه خاضعاً للأسباب .

* * *

الدعـاء المجـاب :

تحركت بديهة زكريا الإيمانية فقال : مـا دامت القدرة طلاقة فى أن تفعل بلا أسباب فأنا أريد ولداً وإن كنت كبيراً وامرأتى عاقراً .

هل أوجد كلام مريم هذه البديهية الإيمانية عنـد زكريا ، أم أن كلامها نبهها فقط ، وهى فى الأصل موجودة عنده ؟ بل نبهها ، وهى موجودة قبـل ذلك .

---

(١) سورة آل عمران ، آية : ٣٧ .

هناك فرق بين معلوم فى بؤرة الشعور ، ومعلوم فى حاشية الشعور ، يستدعى عند اللزوم بتداعى المعانى •

فمريم استدعت هـذه القضية من حاشية شـعور زكريا الى بؤرة شعوره فطلب من الله مطلباً من نفس النوع •• فقال :

﴿ رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء ﴾ [1] •

وهذا دليل على أنه صدق مريم فى قولها : (هـو من عنـد الله) •
ودليل آخر على صدقها : أنه لابد لم ير الرزق الذى رآه عندها لا فى بيته ، ولا فى زمـانه •

والولد يطلبه الناس عامة ليكون لهم عزاً ، أو ليحفظ ذكرهم ، ولكن زكريا طلب ذرية طيبة ، لأن هناك ذرية غير طيبة • وفى آية أخرى يقول :

﴿ يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا ﴾ [2] •

أى أريده وعاء لإرث النبوة والمناهج ، وإرث القيم •• وطلب الهبة من الله معناه : استعطاء شيء بلا مقابل وقد قال زكريا لربه : ﴿ هب لى ﴾ لأنه كبير ، ولأن امرأته عاقر • فهو طلب بلا مقابل من شـباب من الرجل ، أو خصوبة فى المرأة •• بل إن من كان عنده استعداد فسيظل هبـة بالنسـبة له •

إياكم أن تفتنوا بالأسباب ، فهو هبة على أى حال ، يدل على ذلك قوله : (من لدنك) فهى تدل على أن عطاء الله لزكريا هو من وراء الأسباب فهب لى من لدنك ، يعنى : من وراء أسبابك ، وإلا فالكل من عنده •

وهناك فرق بين عطاء بسبب ، وعطاء للأسباب ، كطالب العلم ينقطع لطلب العلم فيتعلم ، وآخر يفيض الله عليه العلم بلا تعلم ، وهو الذى يقال له العلم اللدنى ، أى من غير علاج •

فحين نسمع (من لدنك) فقد انعزلت الأسباب •• وكلمة (هب)

---

(١) سورة آل عمران ، آية : ٣٨ •
(٢) سورة مريم ، آية : ٦ •

أعطتنى ما فى سورة مريم من أن امرأتى عاقر ، وقد بلغت من الكبر عتياً ، وكلمة (هب) هى التى تعطى هذه المعانى •

وحين قال زكريا فى نهاية دعائه :(إنك سميع الدعاء) • وحين يقول الناس ذلك فى دعائهم ، فهل المراد أن يسمع الله الدعاء ، أم يجيب الدعاء ؟ المراد أن يجيب الدعاء •• فيارب لأنك تعلم صدق نيتى فى أنى لا أريد الولد للذكر ، ولا لقرة العين ، ولا للعز ، وإنما أريده وارثاً فى حمل منهجك فى الأرض ، فاسمع دعائى وأجبه يا ربى •

وفى هـذه الحالة من حالات الإخلاص والصـفا أجابه الله ، فقال تعـالى :

* (فنادته الملائكة وهو قائم يصـلى فى المحـراب أن الله يبشرك بيحيى) * [1] •

وإذا كان الذى ناداه هـو جبريل وحده ، فلماذا قال الله تعـالى : (فنادته الملائكة) لماذا عبر عن النداء بمعنى الجماعة ولفظها ؟

والجواب أن الصوت من الحدث له جهة يأتى منها ، والصوت من الملأ الأعلى لا تعرف من أين يأتى • فكأن هنا ملكاً ، وهناك ملكاً ، وهناك ملكاً ، والـكل ينادون ••

والآن قد ارتقى العلم فى الصوتيات ، حتى جعلوا المؤثر الصـوتى الواحد يأتى من جهات مختلفة •• إذن فنداء الملائكة معنـاه أن النداء الواحد جاءه من كل جهـة ••

ولم يكن نداء الملائكة له بالإجابة إلا فى أروع أوقاته مع ربه ، وهو قائم يصلى فى المحراب •• أو يكون المعنى : أنه كان على قدم الأنبياء ، إذا حزبه أمر قام الى الصلاة ، فنودى فى هذه الحالة •

جربوا •• إن تأزم عندك أمر فقم وتوضأ وضوءاً جديداً ، وإن كنت متوضئاً من قبل ، وقف أمام ربك وقل : يا رب : أمر عزّ على فى أسبابك ،

---

(١) سورة آل عمران ، آية : ٣٩ .

ولم يبق لى غيرك .. وأنا أتحدى أن تسلم من صلاتك ولا يكون الفـــرج قـــد جـــاء .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر قام الى الصلاة .. وحزبه أمر ، أى : عزت عليه أسبابه ، وما دامت الأسباب قد عزت فاذهب الى المسبب ، واختصر الطريق ، بدلا من أن تتعب نفسك .. اذهب الى ربك مباشرة ، فهو خالق السبب والمسبب جميعاً .. وفى المثل العامى : من له أب لا يحمل الهم . فما بالك بمن له رب .

وزكريا عزت لديه الأسباب ، فذهب الى ربه ، ودعا فى المحراب ، فنادته الملائكة وهو قائم يصلى ، لم تنتظر حتى يفرغ من صلاته ، وهكذا كل من يلجأ الى الله بقلبه وهمته جميعاً .

* * *

أدب النبوة وطلاقة القدرة :

لقد بشر الله زكريا بولد وهو قائم يصلى فى المحـــراب قـــالت لـــه الملائكـــة :

* (أن الله يبشرك بيحيى) *

والبشارة خبر بخير ، زمنه لم يأت بعد . فإذا كانت بخير لم يأت زمنه فلننظر من المخبر بالبشارة ؟ أهو الذى يقدر على الإيجاد ؟ أم هـــو من لا يقدر على الإيجاد ؟ فإذا كان المبشر هو القـــادر على الإيجاد فإن البشارة حاصلة لا محالة ، كما هو الحال هنا . حيث قالت له الملائكة :

*** (ان الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصـــوراً ونبيا من الصالحين) *** [1] .

قال الله له : سأعطيك ولداً ، وســـماه ، وحدد مهمته ، وأنه سيكون مصدقاً لكلمة من الله أى إنه سيعيش على المنهج ، أو هو سيأتى ليصدق بكلمة من الله ، لأنه أول من آمن بالمسيح . وحدد صفاته ، وأنه ســـيكون سيداً ، وأنه سيكون حصوراً ، أى ممنوعا من كل ما حرم الله ، أو ممنوعاً

---

(١) سورة آل عمران ، آية : ٣٩ .

من قمة الغرائز وهى الشهوة ، وسيكون نبيا ، وأسوة لغيره فى اتباع منهج الرسول الذى فى عصره .

كان طالباً من الله ، وتلقى البشرى وهو قائم يصلى فى المحراب ، ولكنه تعجب ، فهو الطالب وهو المتعجب ، وقال :

* (رب أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر) * [١] .

هـذا دليل على أن النفس البشرية تتقلب ، فهى دائمـاً فى دائرة التلوين ، وليست فى دائرة التمكين . وذلك ليعطى الناس أسوة أنهم إذا حصلت لهم فى أمر من الأمور أن ينتبهوا الى طلاقة القدرة .

قال زكريا : كيف يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر . فأتى بالعنصرين لأن بلوغ الكبر وحده ليس دليلا على عدم الإنجاب ، فإن هناك من يخصبون وهم فى المائة من عمرهم ، إنمـا المهم هو المرأة ، والمرأة هنـا عاقـر .

وهنا لفتة راقية من أخلاق النبوة ، وهى أنه ذكر نفسه بالعيب أولا ، وإلا فلو ذكرها بالعقم أولا لكان فى ذلك خروج لها ، فكأنه حينئذ يقول : أنا صالح للإخصاب وإنما العيب فى امرأتى . وهذا من أدب النبوة العالى .

وهذه العناصر إنما جاءت لتجسيد طلاقة القدرة عند من يسـتمع للقصة ، فحين جمع كل الموانع من هنا وهناك فإن الله يقول :

* (كذلك الله يفعل ما يشاء) * [٢] .

وفى موضع آخر يقول :

* (كذلك قال ربك هو على هين) * [٣] .

وما دام قد قال فقد فعل . . وهنا تظهر طلاقة القدرة ، لأنها فوق الأسباب ، والقدرة خالقة الأسباب .

* * *

(١،٢) سورة آل عمران ، آية : ٤٠ .

(٣) سورة مريم ، آية ٩ .

شكر الأنبياء :

حينما بشر الله زكريا بالولد ، وسماه ، وخبره بصفاته كلها ، تحركت فى داخله طبيعة الشكر لله على هذه النعمة منذ أول لحظة لحدوثها .. لم يرد أن ينتظر حتى تظهر العلامات المرئية أو المحسوسة للحمل فى امرأته ، من انقطاع الطمث ، أو تحرك الجنين ، أو كبر البطن ليشكر ، لأن الجنين قد تم خلقه قبل ظهور هذه العلامات ، وإنما أراد أن يشكر ربه فى اللحظة التى يحدث فيها الإخصاب على الفور . والعلم بذلك لا يكون إلا لله ، ولهذا قال زكريا :

❋ (رب اجعل لى آية) ❋ (١) .

أى علامة على أن هذا الأمر قد تم ، على أن المولود قد وجد فى الرحم بالفعل ، إنه يريد ألا يضيع لحظة واحدة فى غير شكر لربه ، لا يريد أن يفوت على نفسه لحظة من لحظات هبات الله عليه ، فهو يريد أن يعرف بمجرد حصول الإخصاب . يقول : يارب لا تتركنى للعلامات الظاهرة المحسة ، لأنى أريد أن أعيش من أول نعمتك على به فى إطار شكرك .

أريد أن أعيش فى نطاق الشكر من أول الإخصاب ، وإلا فقد وجدت النعمة عندى ، وأنا غير شاكر لها .. فهو ليس عنده شك فى وعد ربه ، وإنما هو يريد أن يسرع الى الشكر . وهنا قال له الله تعالى :

❋ (آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشى والإبكار) ❋ (٢) .

المعنى المراد : أن تنتهى عن الكلام لا أن تمتنع عنه أنت بإرادتك .. المراد أن تريد الكلام فلا تقدر .

هناك فرق بين أن يقدر على الكلام ولا يتكلم ، وبين ألا يقدر على الكلام . وما دامت الآية موهوبة له من الله تعالى كالهبة الأولى فهى منع

(٢،١) سورة آل عمران ، آية : ٤١ .

من الكلام • فساعة تجد نفسك عاجزاً عن الكلام مع الناس فى شئونهم فاعلم أن الحمل قد بدأ بالفعل •

لن تستطيع أن تكلم الناس إلا رمزاً بالإشارة •

ثم انظر لتعلم أن الآية من الله تعالى ، وأنه تعالى علم من زكريا الصدق فى طلب الشكر ، تراه قال له :

❊ (واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشى والإبكار) ❊ ٣

فإذا كان الذكر والتسبيح باللسان وبالكلام ، فإن زكريا سيصبح قادراً على الذكر والتسبيح ، أما إذا أراد الكلام مع الناس فى شسئونهم فلا يقدر إلا على الإشارة والرمز فقط •

إذن هو أراد أن يعيش من أول لحظة مع نعمة المنعم شكراً ، فجعل كل وقته ذكراً ، ولم يشغله بكلام الناس ، فجعله قادراً على الذكر ، وغير قادر على كلام النـــاس •



مريم بين الإرهاصات

تجربة فى شخص مريم :

حينما سأل زكريا ربه أن يرزقه من يرثه كان ذلك نتيجة لما سمعه من مريم التى كفلها ، ومعنى كفلها : تعهد لها بالقيام بكل مقومات حياتها ، فكان كلما دخل عليها المحراب وجد عندها رزقاً ، وسؤاله إياها عن هذا الرزق دليل على أنه لم يكن مما يجيئها به ، فتعجب من أن يكون ذلك موجوداً ، وهو الذى يأتى بكل شىء يحتاج إليه .. وردت مريم فقالت :

* (إن الله يرزق من يشاء بغير حساب) *

لفتة من مريم العذراء العابدة فى بيت الله لزكريا ، وزكريا كما نعلم هو الكفيل لها ، فكونها تنطق بهذه العبارة له دلالة على أن الله يمهد لها بالرزق ، ويجىء لها من غير زكريا بأنها ستأتى بشىء من غير أسباب .

فكأن التجربة أراد الله أن تكون من ذاتها لذاتها ، لأنها ستتعرض لشىء يتعلق بعرض المرأة وشرفها ، فلابد أن تعلم مسبقاً أن الله يرزق من يشاء بغير حساب وبدون أسباب ، فإن جاءت بولد بدون ذكر من أبوة ، فلتعلم أن الله يرزق من يشاء بغير حساب .

* * *

وتجربة فى شخص زكريا الكفيل :

فلما سمع زكريا منها ذلك قال : ما دام الله يرزق من يشاء بغير حساب ، ويأتى بالأشياء بلا أسباب ، فإنى قد بلغت من الكبر عتياً ، وامرأتى عاقر ، فلماذا لا يهبنى الله غلاماً بلا أسباب ؟

إذن فقول مريم : (إن الله يرزق من يشاء بغير حساب) لفت زكريا ونبه فيه إيماناً موجوداً فيه .. لا نقول : أوجد إيماناً بأن الله يرزق من يشاء بغير حساب عند زكريا ، بل نقول : نبهه ، وأخرج القضية الإيمانية الى بؤرة الشعور فقال : ما دام الأمر كذلك فأنا اسأل الله أن يهبنى غلاماً .

وطلب الهبة يدل على أنه كسبب الأبوة ، والمرأة كسبب الأمومة لا يأتيان بشيء • من هذا •

فلما سأل الله ذلك استجاب له وقال له : سأهبك غلاماً بدون أسباب من خصوبتك فى التلقيح ، ومن تلقى امرأتك •

* * *

وتجربة فى « يحيى » المنتظر :

وما دامت المسألة ستكون بدون أسباب ، وأن الإيجاد سيكون ، بكن ، فأنا أتحمل شيئا آخر تتحملون أنتم معشر الآباء ، فأسميه لك أيضاً •• قال له : سأهب لك الولد ، وأهب لك الاسم •

وهنا وقفة عند الهبة بالاسم •• فالناس عادة يسمون أبناءهم عندما يولدون ، إذن فالتسمية أمر فى عادات النـاس ، ولكن من يهمهم أمر الوليد حين يقبلون على تسميته يحاولون أن يتفاءلوا بأن يسموه أسماء يرجون أن يتحقق فيه المسمى •• فيسمونه سعيداً ، ويسمونه فضلا ، ويسمونه كريماً ، ويسمون بالاسم الذى يحبون أن يكون عليه المولود •

ولكن هل تأتى المسألة على وفق الآمال ؟ قد يسمونه سعيداً ولا يكون سعيداً ، وقد يسمونه فضلا ولا يكون فضلا ، وقد يسمونه كريما ولا يكون كريماً ، ويسمونه عزاً ولا يكون عزاً • ولكن الله سبحانه وتعالى حين يسمى هو ، ويقدر هو ، فإذا قال : اسمه يحيى دل على أنه سيعيش •

وقديماً قال الشاعر حين تفاءل بأن سمى ابنه يحيى :

سميته يحيى ليحيا ، فلم يكن
لرد قضاء الله فيه سبيل

سماه يحيى فمات ، لأن المسمى ليس هو الذى يحيا ، إن من سمى كانت قدرته عاجزة ، لكن المحيى له طلاقة القدرة • فحين يسمى من له طلاقة القدرة باسم « يحيى » فهل يحيا أو لا يحيا ؟ نعم يحيا ••

وحتى لا نفهم أن الحياة التى أشار الله إليها فى « يحيى » هى الحياة الظاهرة المعروفة للبشر عادة •• لأنه حينما يسمى الرجل ابنه يحيى ، فإنه يأمل أن يحيا متوسط الأعمار ستين أو سبعين أو ثمانين عاماً مثلا •

لكن الله سبحانه وتعالى حين يسمى ، لا يأخذ يحيى على قدر ما يفهم الناس ، بل يأخذها على أنه لا يموت أبداً •

كيف لا يموت أبداً ، والكل يموت بقضاء الله المكتوب ؟ والجواب أن الله يهيىء له من خصومه وأعدائه من يقتله ، فيصير شهيداً ، وهو بالشهادة يصير حياً ، فكأنه يحيا دائماً •

انظروا الى لمحة التسمية •• الله يسميه من عنده ، وحين يسمى من يقدر ، فإن الاسم يشيع ، لابد أن يكون معنى الاسم مناسباً لطلاقة القدرة ، وما دام شهيداً ، فالشهداء أحياء عند ربهم يرزقون ، إذن فهو يحيا حياة الناس ، ويحيا حياة أطول من حياتهم الى أن تقوم الساعة •

* * *

وعجب زكريا :

وأيضاً نأخذ ملحظاً من أن زكريا حينما بشر بغلام ، وسماه الله يحيى ، نجده استقبل البشارة بالعجب ، وكيف يستقبل البشارة بالعجب مع أنه رآها فى مريم حين رزقها الله من غير حساب ، وبدون أسباب •

أكنت تحب أن يمر زكريا بهذا الأمر الخارق للناس مروراً عادياً • دون أن يندهش ويتعجب ؟

بل تعجب وقال : * (انى يكون لى غلام) * [1] •

فكأن الدهشة لم تكن لأنه سيكون له غلام ، ولكنها لفتة الى الأمر العجيب الذى خصه الله به •

وأيضاً ما دامت المسألة ، جاءت على خلاف الناموس ، ناموس النسل ، امرأة عاقر ، ورجل بلغ من الكبر عتياً ، ولم يقل الله له إنى سأهبك الغلام من امرأتك هذه ، أو منك على هذه الحالة ••

هنا تحير زكريا ، هل سيهبنى الله الغلام وأنا وامرأتى على هذه الحالة ، أو يردنا شابين ، أو من امرأة أخرى ؟

إذن فالعجب من الهيئة التى سيكون عليها الإنجاب ، وليس من خرق الله للسبب فى ذاته •

---

(١) سورة آل عمران ، آية : ٤٠ .

واصطفى الله مريم عـلى النساء

وفى سورة آل عمران يعلن الحق اصطفاءه لمريم على نساء العالمين من بين آل عمران الذين اصطفاهم على عالمى زمانهم ايضا فقال تعالى :

﴿ وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العـالمين ✻ يا مـريم اقنتى لربك واسـجدى واركعى مع الراكعين ﴾ ✻ [1] .

وكما قلنا : المراد بالملائكة جبريل ، وكما قلنا كذلك إن المتكلم من البشر له زاوية انطلاق يأتى من جهتها الصوت ، ويستطيع السامع من البشر أن يتأكد من ذلك ، حين يجد انه دائما يميـل باذنه نحـو مصـدر الصـوت .

لكن المتكلم هنا من الملأ الاعلى ، ولهذا جاء الصوت من كل مكـان ، فلا يمكن تحديد جهة ، وهذا ليكون عجيبا .

وعناصر الكلام الذى نادت به الملائكة مريم هى : اصـطفاك .. وطهرك .. واصطفاك على نساء العالمين .. .

هنا اصطفاءان : اصطفى الاولى : لم يقل فيها إنه اصطفاها على أحد .. والثانية قال فيها : إنه اصطفاها على نساء العالمين .

وإذا قال الحق اصطفيت فلانا ولم يقل إنه اصـطفاه عـلى أحد ، فلا مانع حينئذ من أن يصطفى معه غيره . اصطفاه واصطفى غيره كذلك فى أى زمان ومكان ، بدليل أنه تعالى قال فى كتابه :

✻ ﴿ إن الله اصـطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران عـلى العـالمين ﴾ ✻ [2] .

أما إذا قال : إنه اصطفى فلانا على فلان ، فإن هذا الاصـطفاء لا يشاركه فيه أحد أبداً .

وهنا اصطفى الله مريم ضمن اصطفاء آل عمران ، وهو الذى كان

---

(١) سورة آل عمران ، الآيتان : ٤٢ ، ٤٣ .
(٢) سورة آل عمران ، آية : ٣٣ .

على عالمى زمانهم ، واصطفاها وحدها على نساء العـالمين ، وهـو الذى كان على نساء العالمين فى أى زمان ومكان ، وذلك للمهمة التى لم تقم بها امرأة غيرها فى العالم كله ٠

مـا هـو الاصطفاء ؟

الاصطفاء : اختيار واجتباء ٠ مأخوذ من الصفو ، والصفو : الشىء الخالى من الكدر ٠ والمعانى تعرف بالمحسات ، نعرف الصفو من رؤيتنا للماء الكدر ، ومن العسل المصفى ، وهو الذى لا كدر فيه ٠٠ وفى القيم والمعانى نقلنا المحسات الى المعانى ٠

اصطفاك : اختارك واجتباك ٠٠ بمـاذا ؟ بالإيمان ، وبالصـلاح ، وبالحق الطيب ٠٠ ولم يقل على من ٠

لكن فى الثانية قال : (**على نساء العالمين**) ٠٠ إذن الرجال خرجوا ٠٠ لأن الموضوع ليس موضوع رجال ٠ إنما اصطفاها على نساء العالمين ٠٠ يعنى : لا توجد أنثى فى العالمين تشاركها فيما اصطفيت له ، لأنهـا الوحيدة فى العالمين التى ستلد بدون ذكر من أبوة ، وهذه لم تشاركهـا فيهـا أنثى ٠

* * *

إيناس وتمهيـد :

واصطفاء مريم على نساء العالمين يجب أن ينبه فى الإنسان البحث عن سر هذا الاصطفاء ، ما الذى تمتاز به مريم على نسـاء العالمين حتى يصطفيها الله عليهن ؟ إنه شىء يشغل الذهن حقاً ، ويشتمل على شىء من وظيفة الأنثى ٠

ضم هذه الى قول الله على لسانها :

* **(إن الله يرزق من يشاء بغير حساب)** *

ثم ضم الاثنين الى نداء زكريا ، وإجابة الله عز وجل له بهبة ابنـه يحيى ، وما فى ذلك كله من الأسرار ، تجد كل هذا إيناساً بالحـدث الذى سيحدث بعد ذلك ، لأنه شىء يتعلق بعرضها وعفافها ، فلابد أن يمهـد

الله له تمهيداً يؤكد أن هذه المسألة ليس فيها شيء يخدش العرض ، ولا يخدش الكرامة ، وإنما هو محض اصطفاء واختيار من الله تعالى .

نتائج الاصطفاء :

ما نتيجة هذا الاصطفاء إذن ؟

الاصطفاء هو الاجتباء والاختيار . وهو يقتضى مصطفيا ، ومصطفى ، ومصطفى عليه ، والمصطفى هو الله ، والمصطفى هو من وقع عليه الأصطفاء فما هى علة هذا الاصطفاء ؟

هل يصطفى الله واحداً على الخلق ، أو يصطفى مكانا على مكان ، أو زماناً على زمان ، ليدلل الإنسان والمكان والزمان ، أم ليقتنن بالإنسان وفى المكان وفى الزمان ؟

إن الذى يصطفيه الله ، إنما يصطفيه لمهمة صعبة ، وليس لمجرد التدلل . فهو يصطفيه ليشيع اصطفاءه فى الناس ، فكأنه مصطفى للناس ، ولمصلحة الناس ولذلك إذا اصطفى الله إنساناً أو اصطفى مكاناً ، فاعلم أن اصطفاء الله للمكان مثلا ، إنما ليشيع اصطفاؤه فى كل مكان ، كما اصطفى الله الكعبة للعالمين كلهم ، وإذا اصطفى زماناً مثل رمضان ، فإنما هو ليشيع صفاؤه وصفاء ما أنزل فيه فى كل زمان .

إذن لمصلحة المصطفى عليه يكون أختيار المصطفى . لماذا ؟ لأنه ليس منا أحد ابناً لله . ولا مكان أقرب الى الله من مكان ، ولا زمان أقرب الى الله من زمان ، لكن الله يصطفى مكاناً على مكان ، وزماناً على زمان ، وإنساناً على إنسان ، ليشيع اصطفاء المصطفى فى كل ما اصطفى عليه .

إذن يجب أن يفرح الناس ولا يغادرون ، لأن الاصطفاء لمصلحتهم ..

وربما سأل سائل : ولماذا اصطفى الله مريم ليشيع اصطفاؤها فى الناس ؟

والجواب أن هذا الاصطفاء معناه : أن يبرئه الله مما يقع فيه نظيره من الاختيارات ، ويجعله لا يفعل إلا الخير من أول وهلة .. أما نحن فسنتعلم من الرسول الذى سيجىء ... المدة التى علمنا فيها رسول الله

صلى الله عليه وسلم كانت ثلاثاً وعشرين سنة ، ليربى الإنسان المؤمن •
فهل كان هو أيضاً يجلس ليتعلم ثلاثا وعشرين سنة من أجل أن يعلمنا ما تعلمه ؟

لا •• إن الله يصطفيه ، ويبرئه مما يقع فيه غيره من الاختيارات •
ويجعله وعاء خير محض ، وهكذا كانت مريم •

❋ ❋ ❋

مريم تعيش فى نعمة الشكر :

وكان من توجيه الله لمريم وهو يعدها لأعظم مهمة أن وجهها نحو الشكر الدائم بمختلف وسائله فقال تعالى :

❋ (يا مريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين) ❋ [1] •

اقنتى : اعبدى بخضوع وخشوع ، اسجدى : بالغى فى الخضوع والخشوع بوضع الجبهة التى هى أشرف شىء فى الإنسان على الأرض •

لكن ذلك لا يعفيك مما يكون من العبادة من اناس • فلا تقولى إنى فعلت الأعلى فلا أفعل الأدنى • لا •• بل اركعى مع الراكعين •

شاركى الناس فى عبادتهم ، واركعى معهم ، ولو كنت قد سجدت وحدك •• كونى فى ركب الراكعين • أو فى ركب الإيمان •

ونظير ذلك فى المعنى قوله تعالى على لسان المتحاورين :

❋ (ما سلككم فى سقر ❋ قالوا لم نك من المصلين) ❋ [2] •

هم كفار •• فكيف يعذبون ؟ لأنهم لم يكونوا يصلون • ولكن المعنى : لم نكن فى سلك المصلين من المؤمنين • أى لم نكن من المؤمنين الذين يصلون •• إذ أن الصلاة هى سمة المؤمنين وحدهم •

❋ ❋ ❋

---

(١) سورة آل عمران ، آية : ٤٣ .
(٢) سورة المدثر ، الآيتان : ٤٢ ، ٤٣ .

ذلك من أنبـاء الغيب

ولكن مـا هى وسيلة العلم بخبر مريم وقصتها ؟ إنه الغيب وحده ، ولهـذا يقول الحق :

﴿ ذلك من أنبـاء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقـون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون ﴾ [1] .

وكلمة النبأ لا تأتى إلا فى الخبر العظـيم . والغيب من الغياب عن الحس . وهناك غياب عن الحس يمكن أن يدركه مثلك ، وهناك غياب عن الحس لايمكن أن يدركه مثلك من الناس .

وقلنا مراراً : إن حجب الغيب ثلاثة : مرة يكون الحجاب فى الزمن الماضى ، ومرة يكون فى الزمن المستقبل ، ومرة يكون فى المكان .. لأن الأحداث تكون فى زمان ومكان . فمرة يجىء الحجاب فى الزمان . فاذا أخبرنى منبىء بخبر زمنه فقد خرق حجاب الزمن الماضى ، وإذا أخبرنى بخبر سيحصل بعد ، فقد خرق حجاب الزمن المستقبل .

ولكن إذا كان معاصراً لى ، فقد خرق حجاب المكان ، أنا الآن فى القاهرة ، لا أستطيع أن أعرف مـا يجرى فى طنطا ، أو فى الإسكندرية . فإذا أخبرنى الآن منبىء بخبر يحدث الآن فى الإسكندرية فقـد خـرق حجـاب المكـان .

إذن فالحجاب قد يكون حجاب مكان ، وقد يكون حجـاب زمـان ماضٍ ، وقد يكون حجاب زمان مستقبل .

فإذا كان الله تعالى ينبىء رسـوله صلى الله عليه وسلم بذلك النبأ ، فوسائل علمه صلى الله عليه وسلم ثلاثة :

---

(١) سورة آل عمران ، آية : ٤٤ .

إما أن يشهده ، وهذه تستدعى أن يكون فى زمنه ، وهذه أشــياء حدثت منذ زمان ماض بعيد ، والمشاهدة لا تصلح وسيلة علم إذن •

وإما أن يقرأ ، وإما أن يسمع • وهذه وسائل العلم : المشــاهدة ، القراءة ، السماع ، وهو صلى الله عليه وسلم بإقرار جميع خصومه لم يكن قارئا • فامتنعت هذه الوسيلة أيضاً ، وبإقرار خصومه صلى الله عليــه وسلم ، أنه لم يجلس الى معلم فيسمع منه ، فهو لم يسمع أيضاً • فامتنعت كل وسائل العلم ، فلم يبق إلا أنهــا وحى •

والله تعالى يقول له :

﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ﴾

لم تكن معهم ولم تقرأ ولم تسمع ، فلم يبق إلا أن يخبرك من يخرق حجاب الزمن الماضى ، ويخرق حجاب الزمن المستقبل ، ويخرق حجاب المكان ، سبحانه وتعالى •

والوحى : إعلام بخفاء • لأن للإعلام وسائل أخــرى هى القراءة والرؤية ، أما الإعلام بخفاء فهو الوحى •

والوحى يقتضى : موحيا ، وموحى به ، وموحى إليه • وإذا نظرت الى الإعلام بخفاء تجد له وسائل كثيرة • فالله يوحى ، والموحى اليه يختلف • هو سبحانه وتعالى يوحى الى الأرض ، قال تعالى :

﴿ يومئذ تحدث أخبارها ﴿ بأن ربك أوحى لها ﴾ (١) •

ويوحى الى النحل • قال تعالى :

﴿ وأوحى ربك الى النحل أن اتــخذى من الجبــال بيوتا ومن الشــجر ﴾ (٢) •

ويوحى الى الحواريين ، قال تعالى :

﴿ وإذ أوحيت الى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى ﴾ (٣) •

---

(١) سورة الزلزلة ، آية : ٤ ، ٥ .
(٢) سورة النحل ، آية : ٦٨ .
(٣) سورة المائدة ، آية : ١١١ .

وأوحى الى أم موسى ، قال تعالى :

﴿ وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخـــافى ﴾ [١] .

وكذلك أوحى الى الملائكة ، وأوحى الى الأنبياء .

وهناك غير الله يوحى ، فالشياطين يوحون :

﴿ وإن الشياطين ليوحون الى أوليائهم ﴾ [٢] .

﴿ شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول غـــروراً ﴾ [٣] .

ولكن الوحى إذا أطلق انصرف الى الوحى من الله الى من اختـــاره لرسالته . وما عدا ذلك من الوحى فهو الوحى اللغوى .

وحى الله للأرض ليس اصطلاحيا ، وكذلك وحيه لأم موسى ، وللنحل وللأرض ، وغير ذلك كله ليس وحيا اصطلاحياً ، والوحى الاصطلاحى هو الذى يكون من الله الى من اختاره للرسالة فقط .

* * *

---

(١) سورة القصص ، آية ٧ .
(٢) سورة الأنعام ، آية : ١٢١ .
(٣) سورة الأنعام ، آية : ١١٢ .

بشـارة مـريم

الكلمة والمسيح :

وبعد ذلك كله بشرت الملائكة مريم بالمسيح يولد بمقتضى الكلمة ، لا بمقتضى الذكر والأنثى ، فقال تعالى :

﴿ إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً فى الدنيا والآخرة ﴾ (١) .

البشارة لابد أن تكون بخبر عظيم مفرح . وكانت البشارة بالكلمة ، لأن الله تعالى يزاول سلطانه فى الملك بالكلمة ، لا بالعلاج .

﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ (٢) .

وكلمة « كن » هى تقريب لنا فحسب ، لأنه لا يوجد عندنا أقصر فى الإفهام من « كن » إنما الحقيقة أن الأمر ينتهى قبل الكاف .

انظر الى قوله تعالى : **﴿ اذا أراد شيئاً أن يقول له ﴾** فالقول له ، يعنى للشىء المراد ، انه يقول للشىء المراد : كن . أى أنه موجود قبل أن يقول له كن وإلا لما خاطبه بكن ، ان الأشياء موجودة بالإرادة ، فما أراد الله إظهاره لخلقه قال له « كن » فكأنه يقول له : اظهر لخلقى . أما الأشياء فهى موجودة بالإرادة ، و « كن » للإظهار فقط .

وقد أطلق الله تعالى على المسيح المبشر به ثلاثة أسماء : المسيح . عيسى ، وابن مريم ، فالمسيح لقبه ومعناه : الممسوح من الذنوب ، أو لأن من آياته أن يمسح على المريض فيبرأ ، أو المبارك . وعيسى اسمه . وابن مريم كنيته .

والعلم فى اللغة يأتى على ثلاثة أنحاء : اسم ، وكنية ، ولقب ، قال ابن مـالك :

---

(١) سورة آل عمران ، آية : ٤٥ .
(٢) سورة يس ، آية : ٨٢ .

« واسما أتى وكنية ولقبــا » :

فالاسم ما يطلق على المسمى أولا • والاسم الثانى ان أشعر برفعة أوضعة ، فهو اللقب ، وان كان مبدوءا بأب أو أم ، فهو الكنية •

* * *

صفات دالة على المستقبل :

وصف القرآن المسيح عليه السلام بقوله تعالى :

*** (وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين * ويكلم الناس فى المهد وكهلا ومن الصالحين) *** (١) •

نقول : فلان وجيه ، ومن وجهاء القوم • والوجيه هو الذى لا يرده مسئول للكرامة فى وجهه • تقول : هذا الوجه لا يرد ، وتستحى أن ترده • ولذلك يقول السائل : أعطنى لوجه الله •• لا تنظر لوجهى ، بل لوجه الله • لأن الله هو الذى خلقنى ، فهو الذى يتكفل برزقى •• فأنت حين تعيننى فكأنك تعطى لوجه الله سبحانه وتعالى •

ولماذا كان وجيها فى الآخرة ؟

كان وجيهاً فى الآخرة لأنه سيسأل سؤالا يتعلق بالقيمة الإيمانية ، فيقــال لــه :

*** (أأنت قلت للناس اتخذونى وامى إلهين من دون الله) *** (٢) •

وليس هذا السؤال سؤال تقريع ، بــل إن التقريع لمــن قال هــذا الكلام ، وادعى فيه هذه الدعوى . ولذلك سيقول الله تعالى فيه :

*** (وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا) *** (٣) •

---

(١) سورة آل عمران ، الآيتان : ٤٥ ، ٤٦ .

(٢) سورة المائدة ، آية : ١١٦ .

(٣) سورة مريم ، آية : ١٥ .

يوم ولد ، لأنهم اتهموا أمه بالخنا ، وهى الطاهرة البتــول ، ويوم يموت ، لأنهم قالوا فيه : إله ، أو ابن إله ، وإنه صلب ، الى آخر ما قيل ... وحين يفتن البشر فى واحد ، فللمعانى دلالة .

وأتى بكلمة « المهد » و « كهلا » رمزاً الى أن عيسى من الأغيار ، يطرأ عليه ما يطرأ على الناس من الطفولة والكهولة ، وما دام كذلك فيجب ألا تفتنوا فيه ، وتقولوا عنه : إله ، أو ابن إله .

دلالة كلام المسيح فى المهد وفى الكهولة :

والكلام معناه : اللفظ الذى ينقل فكر الناطق الى السامع . وقول الحق : **(ويكلم النـــاس فى المهــد)** .

معناه أن المسيح عليه السلام سيواجه الناس بكلامه ، ونفهم منه كذلك سر وجود آية أن يتكلم وهــو فى المهد .

وذلك لأن المسألة تتعلق بعرض أمه ، وبعفتها وكرامتها ، فكان أن جاءت آية لتمحو عجباً من الناس حين يجدونها تلد بدون أب .

وهذه المسألة اذا بحثنا عنها فى الإنجيل لا نجد لهــا وجوداً ، آية الكلام فى المهد ، لا وجود لها فى الإنجيل ، مع أنها كان يجب أن تقال منهم ، لأنهم يمجدون نبيهم ، ولهذا كان يجب ألا يغفلوا عن هذه العجيبة .

إلا أنه لما كان كلام طفل فى المهد عجيباً ، فان كلامه سيكون محفوظاً ومتداولا بين الناس ، لأنه حين يتكلم وهو فى المهد فان الناس لن يقولوا : انه تكلم فقط ، بل سيحفظون كلامه ويقولون : قال كــذا كــذا ، لأن العجيب هو أنه يتكلم فى المهد ، فالناس لابد أن يعرفوا ماذا قال .

والكلمة التى قالها فى المهد لا تسعف أتبــاع المسيح عليه الســلام فما يدعونه له ، لأن الكلمة التى قالها هى :

* **(إنى عبد الله آتانى الكتاب وجلعنى نبيا)** (١) .

---

(١) سورة مريم ، آية : ٣٠ .

ولهذا أغفلوا هذه القصة نهائيا .. لأن كلام طفل فى المهـد سيكون عجيباً ، ومادام عجيباً وملفتاً للأذهان فلابد أن يحفظه الناس ، وهو قال : إنى عبد الله ، وهذا القول ينقض التضحية التى يريدون أن يضعوا فيهـا عيسى عليـه السـلام .

والكهل : هو من فى العقـد الرابع من العمر ، أى من الثلاثين الى الأربعين . وبعضهم قال : من فى الأربعين .

فاذا كان قد تكلم فى المهد ، فبقى أن يتكلم وهو كهل ، وهـو قد حصلت له مسألة الصلب أو عدمه ، أو الاختفاء عن البشر ، قبل أن يكون كهلا ، إذن لابد أن يأتى وقت يكلم الناس فيه وهو كهل .

وأيضاً قوله : ﴿ (ويكلم النـاس فى المهـد) ﴾ أى طفـلا ، ﴿ (وكهـلا) ﴾ يعنى : ناضج التكوين إذن ففيه أغيار ، وفيه أحوال .

فاذا كنتم تقولون : انه إله ، فالألوهية وهو فى المهـد هى الألوهية وهو فى الكهولة ، ولكنها تكون ناقصة وهـو فى المهد . اذن حصلت لـه أغيار ، ومادام قد حصلت له أغيار فهو محدث ، ومادام محدثاً فهو ليس إلهـاً .

وقد جاء فى وصف المسيح عليـه السلام قوله تعالى : ﴿ (ومن الصالحين) ﴾ . إذن فكيف يتفق وصفه بالصلاح مع ذكر ما هو أعظم من الصلاح ، وهو النبوة ، والكلام فى المهد ؟

نقول : ان المعجزات التى أكرمه الله تعالى بها لا اختيار له فيها ، فكلامه فى المهد من الله ، ودون اختيار منه ، وكلامه فى الكهولة بالوحى ، فلا اختيار له فيه ، أما كونه من الصالحين فهذا عمله هو ، وحركته السلوكية إذ لا يكفى أن يكون مبلغاً ، أو حامل آية ، ولكنه لابد أن يؤديها .

لم يمسسنى بشر

نريد أن نقف وقفة ذهنية تدبرية عند قول مريم :

﴿ أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ﴾ (١)

لأن هذا كما قلنا أمر يتعلق بعرضها وعفافها وسيكون له شأن فى اتهامها الذى ذكره به القرآن فى قوله تعالى :

﴿ قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً ۝ يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا ﴾ (٢) .

ولو قالت : **(أنى يكون لى غلام)** وسكتت ، فهذا كلام معقول ، أما قولها : **(ولم يمسسنى بشر)** فمن أين أتت به ؟

الله تعالى لم يقل لها : إنك ستلدين من غير أب ، فكيف عرفت أنه سيكون بلا أب ؟ وسيكون من غير أن يمسها بشر ؟

انظروا الى فطنة مريم التى أعدها الله لتتلقى عنه حين قال لها الله سبحانه وتعالى وهو يبشرها :

﴿ إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم ﴾ (٣) .

لقد أدركت أنه مادام قال : ابن مريم ، إذن فهو من غير أب فقالت : (ولم يمسسنى بشر) . استنتاجاً من قوله : (ابن مريم) . لأنه لا يمكن أن ينتسب الى الأم مع وجود الأب . هذه هى الفطنة ، وهذا هو التلقى . حينئذ قال الله تعالى :

﴿ كذلك الله يخلق ما يشاء ﴾ (٤) .

---

(١) سورة مريم ، آية : ٢٠ .
(٢) سورة مريم ، الآيتان : ٢٧ ، ٢٨ .
(٣) سورة آل عمران ، آية : ٤٥ .
(٤) سورة آل عمران ، آية : ٤٧ .

كذلك ، أى : لن يمسك بشر ، كان يمكن أن يقـال : أنه نسب اليـك لأنك مكرمـة ، أنت كنت منذورة ، وأنت فى خدمة البيت ، ولـكن قال لهـا : (كذلك) ، تأكيداً لمـا فهمته •

أى هو كما تقولين ، لن يمسك بشر ، الله يخلق ما يشاء ، وهـذه هى طلاقة القـدرة •

وقلنا مراراً : إن طلاقة القدرة فى الأنسال أو فى الإنجـاب أو فى عالم التكثير فى الإنسان لا تتوقف على وجود ذكورة وأنوثة • وإلا فلو كانت متوقفة على وجود الذكورة والأنوثة فكيف وجد آدم عليه السـلام أول الخلق بلا ذكر ولا أنثى ؟

وإن كانت الفتنة فى أنه من غـير أب فكان الأولى أن تفتتوا بآدم ، لأنه لا بأب ولا بأم •

إذن هو يخلق بعدمهما ، وهو آدم ، ويخلق بواحد منهما ، وهو حواء وعيسى عليه السلام ، ويخلق بهما ، وهم جمهرة الناس •

ولا تظنوا أن اجتماع العنصرين منتج للنسل حتماً ، لا ، بل قال : أنا أمنع النسل مع وجودهما • قال تعالى :

*** (لله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور * أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ويجعل من يشـاء عقيمـاً) *** [1] •

إذن لا تقل : ان اكتمال العنصرين ينتج وأن امتناعهما لا ينتج • لا • فانتم أيها المحدثون تفعلون بالأسباب ، انما الذى خلقكم وخلق الأسـباب لـكم هـو الذى يوجد بلا أسباب ، لأنه أنشأ العالم أول مـا أنشـأه بلا أسـباب •

(١) سورة الشورى ، الآيتان : ٤٩ ، ٥٠ .

عيسى رسول الله

رسالة المسيح عليه السلام :

قال الله تعـالى :

* (ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل * ورسـولا الى بنى إسرائيـل) [١] .

حينما نسمع كلمة الكتاب نفهم منه : أنه الكتاب المنزل . فكيف هذا وقد قال تعالى : * (والتوراة والإنجيل) * ؟

إذن لابد من تفسير كلمة * (الكتاب) * . يجوز أن تكون الكتب المتقدمة ، مثل الزبور ،وصحف إبراهيم . أى علمناه ما نزل قبـله من زبور داود وصحف إبراهيم . والمباشر الذى جاء ناسخا له وهو التوراة ، والإنجيـل وهو كتابه .

وبعض العلماء قال : أثر عن عيسى عليه السـلام : أن تسعة أعشار جمال الخط كان فى يده . إذن * (ويعلمه الكتاب) * أى الكتابة .

أما الحكمة ، فكلمة الحكمة عادة تأتى بعد الكتاب المنزل . قال الله تعـالى :

* (واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة) * [٢] .

فآيات الله هى القرآن ، والحكمة هى كلام رسول الله صلى عليـه وسلم . اذن فالرسول له كلام يتلقاه ، ويأمره الله بإبلاغه ، وله كـلام من عنده وهو الحكمة .

---

(١) سورة آل عمران ، الآيتان : ٤٨ ، ٤٩ .
(٢) سورة الأحزاب ، آية : ٣٤ .

أما التوراة فقد جاء المسيح ليكمل التوراة ، ليكمل ما أنقصه اليهود منها . إذن فالتوراة أصل من أصول التشريع ، لأن الله تعالى قال فيه :

* (ورسولا الى بنى إسرائيل) [1] .

معجـزات المسيح :

قال الله تعالى :

*** (ورسولا الى بنى إسرائيل انى قد جئتكم بآية من ربـكم انى اخلق لكم من الطين كهيئة الطير فانفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله وأبرىء الاكمه والابرص وأحيى الموتى بإذن الله وانبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين) * [2] .**

كلمة رسول ، تتطلب علامة .. فليس لأحد أن يقول : إنى رسـول من عند الله إلا إن قدم بين يديه معجزة تثبت أنه رسول من عند الله .

والآية ، هى الأمر العجيب الذى خرج عن القوانين والنواميس ، وما دامت المعجزة إنما جاءت لتثبت صدق الرسول فى البلاغ عن الله ، فلابد أن تكون أمراً خارجـاً عن النواميس المعروفة للبشر . وما دامت خارجة عن نواميس البشر ، فالمخالف نقول له : أنت حين تكذب أن هـذا رسول ، فكيف أنه جاء بشىء خارج عن ناموسكم .

إذن الآية تلزم المنكر الحجة ، وتتحداه ، كأنه يقـول له : أتحـداك أن تجىء بآية مثلهـا .

ومن لوازم التحدى : ألا يتحدى الله الناس فيعطى لرسوله معجزة إلا بشىء قد نبغ فيه القوم وتعمقوا ، لأنه لو جاءهم بشىء لم يعـرفوه ولم يدرسوه ولم ينبغوا فيه ، فإن الرد سيكون : هذا شىء لـم نروض أنفسنا عليه ، ولو روضنا أنفسنا عليه لأتينا بمثله .

---

(١) سورة آل عمران ، آية : ٤٩ .

(٢) سورة آل عمران ، آية : ٤٩ .

ولكنه يقول : سآتيكم بمعجزة من جنس ما نبغتم فيه •

الناس فى زمن موسى عليه السلام كانوا نابغين فى السحر . فجاءهم الله تعالى على يد موسى بشىء يشبه السحر وليس سحرا • • احذروا أن تقولوا عن معجزة موسى عليه السلام • • إنها كانت سحرا • • فالسحرة يخيلون للناس أشياء لا واقع لهـا فى حقيقة الأمر •

والقرآن الكريم يعطيك الفارق بين ما تكون عليه المعجزة التى يأتى بها الله على يد الرسول من الأمور الخارقة ، وبين مـا يكون عليـه سحر السحرة فى معجزة موسى عليه السلام ، فالله حين سأل موسى قال له :

❊ (وما تلك بيمينك يا موسى) ❊ (1) •

فقـال موسى •

❊ (هى عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخـرى) ❊ (2) •

قال له الله تعـالى :

❊ (ألقها يا موسى ❊ فألقاها فإذا هى حية تسعى) ❊ (3) •

قال له ربه : هذا علمك بما فى يمينك • • أن تتوكأ عليها ، وتهش بها على غنمك ، أما علمى فهو شىء آخر ، ولهـذا لمـا ألقى موسى عصـاه وجدها حية تسعى ، حية حقيقية •

❊ (فأوجس فى نفسه خيفة موسى) ❊ (4) •

خوف موسى هو الذى أوجد الفرق بين المعجزة وبين سحر الناس • فالساحر حين كان يلقى عصاه كان الناس يرونها حية ، أما هو فيراهـا

---

(1) سورة طه ، آية : ١٧ .
(2) سورة طه ، آية : ١٨ .
(3) سورة طه ، الآيتان : ١٩ — ٢٠ .
(4) سورة طه ، آية : ٦٧ .

عصا أو حبلا على حقيقتها ، ومن هنا لم يكن الساحر يخـاف من الحيات التى يخيل للناس انه صنعهـا .

إذن لماذا خاف موسى ؟ خاف موسى لأن عصاه قد تغيرت وتحـولت الى حية بالفعل ، ولذلك قال له ربه سبحانه :

﴿ خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى ﴾ [1] .

ولو كانت من جنس السحر لما خاف ، أو لمـا أوجس فى نفسه خيفة .

وقوم عيسى كانوا مشهورين بالطب والحكمة . وما داموا مشهورين بالحكمة والطب فإن المعجزة ستأتى من جنس الحكمة والطب ثم تتسامى . لأن الذى يداوى جسمك تنقطع علاقته به إذا مات ، ساعة أن يمـوت المريض فقد خرج عن دائرة علاج الطبيب . . ولكن معجزة عيسى عليـه السلام تسامت فجعلته يحيى الموتى ، وهذا فرق فى الإعجاز .

* * *

الخلق فى معجزة المسيح :

من معجزات المسيح أنه يخلق . قال تعالى على لسانه :

﴿ إ نى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طـيراً بإذن الله ﴾ [2] .

كلمة (أخلق) تريد وقفة . وكذلك (الطين) و (الهيئة) و (الطير) الخلق : إيجاد شىء على تقدير . أى : إيجاد شىء كان فى ذهنك أن تأتى به على هذه الحالة قبل أن توجده .

أما إن كنت ستوجده كيفما اتفق ، وعلى أى حال جاء ، فليس هذا خلقاً . فالخلق لابد أن يكون مقدراً قبل الإيجاد بالطول والعرض والعمق

---

(١) سورة طه ، آية : ٢١ .

(٢) سورة آل عمران ، آية : ٤٩ .

والهيئة • فصانع « الطعمية » مثلا قد يصنعها على قالب ، فهذا تقدير • وقد يصنعها كيفما اتفق ، فهذا ليس خلقاً لأنه بلا تقدير •

والخلق على تقدير فيه إيجاد من عدم • فالكوب الزجاجى مثلا حينما حصلنا عليه ، هل كانت هناك شجرة تثمر أكواباً ؟ أم إننا أخذنا الرمال وصهرناها ، وصنعنا منها أكوابا ، لم تكن موجودة فوجدت على تقدير •

هذا خلق ، والله تعالى يخلق ويوجد على تقدير ، فما الفرق إذن بين خلق الله ، وخلق البشر ؟

أولا : إن صنعة البشر حين يخلق ، فإنما يخلق من موجود ، أما الله تعالى فحين يخلق فإنما يخلق من عدم •

فالبشر يأخذون الموجود ، ويتصرفون فيـــه بالعلم ، حتى يكون شيئاً جديداً بتقدير • والبشر لا يستطيعون خلق كوب زجاجى بدون رمل • إذن فخلق البشر من موجود ، وخلق الله من عدم ، وهما إيجاد على تقدير •

ثانيا : الله تعالى حين يخلق يعطى خلقه سراً لا يستطيع البشر إعطاءه لمـــا يخلقون ، يعطيه سر الحياة التى بها النمو والتكاثر •

فالبشر يستطيع صنع الكوب الزجاجى ، ولكنه لا يستطيع أن يصنع كوباً ذكراً وكوبا أنثى ، ويزوجهما لينسلا ويتكاثرا •• بل يوجـــد البشر الكوب كما هو • لا يوجده صغيراً ثم يكبر •

أما صنعة الله فيعطيها الحياة ، فهى تكبر ، وتتطور فى مراحل ، وتؤتى مثلهـــــا •

والخلاصة : أن الخلق إيجاد على تقدير ،وهذا الخلق يوجد معدوماً ، وهذا المعلوم مادته موجودة أم غير موجودة ؟ الله تعـــالى يأتى بالشىء من العدم ، لا مادة له فى الأصل ، والبشر يأتى بالشىء ومادته موجودة •

وأيضاً البشر حين يوجدون شيئاً يوجدونه جامداً لا حياة فيه ، ولا قدرة له على الإتيان بمثله . أما الله سبحانه وتعالى فيأتى بالشىء حياً قادراً على إيجـــاد مثله •

إذن فقول الحق سبحانه :

❊ (**فتبارك الله أحسن الخالقين**) ❊ [1] •

يدل على أن الله سبحانه وتعالى لم يضن عـــلى خلقـــه بأن يخلقوا أشياء ، أنتم تخلقون ، والله يخلق ، ولكن الله أحسن خلقا ، لأنكم تخلقون من موجود ، وخلقكم لا يؤتى مثله ، أما الله تعالى فيخلق من عدم ، وخلقه يوجد المثل • فهو سبحانه وتعالى أحسن الخالقين •

إذن قول عيسى عليه الســـلام : ❊ (**أخلق لكم من الطـــين كهيئة الطـــير**) ❊ عمل فى مقدور أى إنسان • يمكن لأى إنسان أن يأتى بقطعة من الطين ، ويشكلها على هيئة طير •

لكنه قال : ❊ (**فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله**) ❊ • وهنـــا المعجـــزة •

(فأنفخ فيه) فى الطين ، أو الهيئة ، أو فى الطير • • إن قلت فى الطين فهو بعد ما صار طيراً • • ويصح ❊ (فأنفخ فيها) ❊ أى فى الهيئة • هناك آية هكذا • • ❊ (فيه) ❊ فى الطين أو فى الطير ، و ❊ (فيها) ❊ للهيئـــة •

وعن مريم أيضاً جاء الوجهان :

❊ (**والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا**) ❊ [2] •

❊ (**ومريم ابنـــة عمران التى أحصنت فرجهـــا فنفخنا فيـــه من روحنـــا**) ❊ [3] •

---

(١) سورة المؤمنون ، آية : ١٤ .
(٢) سورة الأنبياء ، آية : ٩١ .
(٣) سورة التحريم ، آية : ١٢ .

(فيه) أى : فى الفرج • و (فيها) أى : فى درعها •

هل كان إعجاز عيسى أنه عمل من الطـين كهيئة الطـير ؟ لا • كل واحد يستطيع ذلك • فكأنه حين قال : ﴿ أخلق لـكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله ﴾ • كونه طيراً جاء من النفخة ، وهنا المعجزة • أما الأولى فمن الممكن أن يفعلها أى إنسان •

أو (بإذن الله) راجعة الى الكل • جائز ، لأنه لا يجترىء أحد على أن يصنع كهيئة الطـير •

وما دام الطير سيكون طيراً بإذن الله ، فمـا معناها ؟ معناها : لأنهـا ليست صنعته ، بل هى بإذن الله • • نقول لهم : تعالوا ، إن كنتم فتنتم بهذه ،فكان الأجدر أن تفتنوا بإبراهيم حينما قطع الطاير ، ودعاه فجاءه سـعيا •

﴿ وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم أدعهن يأتينك سعياً) ﴾ (١) •

* * *

طب المسيح وطب الأطباء :

ومن معجزات المسيح أنـه يبرىء الأكمه والأبرص • لماذا هـذان المرضان بالذات ؟ لأنهما من الأمراض المستعصية فالأكمة هـو : الـذى ولد أعمى • والأبرص هو من به وضح • وهو : ابيضاض بقعة فى الجلد ، وإن كان صاحبها آدم ، أو أسود ، مما يدل على أن لون الجلد له كيماويات فى الجسم تعطيه ، فاذا امتنعت الكيماويات فهذا لونه • وقد عرفوا أن

---

(١) سورة البقرة ، آية : ٢٦٠ .

مونات الجلد عبارة عن غدة اسمها الغدة الملونة ، وما زال علاج هــذا المرض عســيراً إلى الآن •

حين جاء المسيح أعطاه الله الآية من جنس ما نبغوا فيه وهو الطب ، وجاءهم بشيء عجزوا عن علاجه •

وبعض القوم يحاولون أن يقربوا أمر المعجزة الى العقول ، فيقولون إن المعجزات عبارة عن سبق زمنى • أى ان العلم يمكن أن يكتشفها فى زمن مستقبل ، بدليل أنهم زرعوا قرنيـــة العين والقلب وغير ذلك مما لم يكن موجوداً ولا معقولا من قبل •

نقول لهم : لا • المعجزة الى أن تقوم الساعة كيف ؟ خذوا كــل شيء بأدواته • عيسى عليه السلام كان يبرىء بالكلمة والدعوة ، فمهما تقدموا ، فهل يبرئون المرضى بالكلمة والدعوة ؟ أم سيأخذون الكيماويات ويدخلون المعامل ، ويصنعون الفحوص ؟

إذن المعجزة هى المعجزة ، وستظل معجزة ، لأن عيسى عليه السلام كان يبرىء بالكلمـــة •

* * *

إحيــاء الموتى :

من معجزات المسيح إحياء الموتى • قال الله تعالى على لسانه :

﴿ وأحيى الموتى بإذن الله ﴾ [1] •

والمسألة يأخذها هكذا ، يصنعها لكل طالب ، بل أخذها فى وحــدات ومرات معدودة ، تثبت صدقه وصدق الآية ، ولا تعمم مدلول المعجزة ،

---

(١) سورة آل عمران ، آية : ٤٩ .

فقد أحيا سام بن نوح مثلا ، وأحيا لعازر ، أفراداً معـــدودة فقط لإثبات المعجزة ، ولا شيء غير إثبات المعجزات ، ليس هذا لكى يصادم قدر الله سبحانه وتعـــالى فى الآجال •

لذلك لم يكن من يحيا بعد الموت يعيش طويلا ، ويعود الى حركته فى الحياة ، فسام بن نوح مثلا ، قام ، تكلم ببضع كلمات ، ثم مـــات ثانيـــاً •

* * *

وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون :

هناك قضيتان فى هذه المعجزة ، قضية عامة ، وهى ما يأكله الإنسان بوجه عام ، أى يعيش عليه الإنسان من الأطعمة والأشربة •• ولـــكن كل إنسان فى بيته له خاصية أحداث •

أكل الإنسان فى بيته أمر خاص به هو ، أما الأول فأمر عام للكل • فهو يقول : إنى سأنبئك بخاصية أحداثك ، وأقول لك : أنت أكلت ماذا ، وأنت أكلت ماذا • وليس معقولا أن يكون قد دخل كل بيت ، وعـــرف منـــه ذلك •

وكذلك كان يعلم ما يدخره الناس فى بيوتهم • • افرض أن الطعام له رائحة ستظهر خارج البيت ، فما بالك بما يدخرون فى البيوت من أنواع الطعـــام ؟

بل إن هذه آية من آيات من يعلم مغيبات الأمور •

﴿ إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين ﴾ [1] •

لأن هذه عجائب ، تثبت أن قوة قاهرة فوق الرسول ، تعطية هـــذه العجائب والآيات •

---

(١) سورة آل عمران ، آية : ٤٩ .

ومعنى الرسول • أى أرسله من هو أعلى منه الى من أقل منــه • والذى يؤمن بالآية هو من يؤمن بإله ، غاية الأمر اننا نريد أن نثبت أن العلامة من عنده أم لا • أما إن كان غير مؤمن بالله ، فما الفائدة ؟

* * *

مصــدق ومشرع :

قال الله تعالى على لسان المسيح :

* (ومصدقاً لما بين يدى من التوراة ولأحل لكم بعض الذى حرم عليــكم) *[1] •

مصدق ، يعنى : ما جئت به مطابق لما جاء فى التوراة • ما بين يديه • ما بين يدى الإنسان هو ما أمامه • وما دام مصدقاً لما بين يديه من التوراة فمــا ضرورة إرساله إذن ؟

تظهر الضرورة فى قوله تعالى :

* (ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم) * •

أى فى التوراة • إذن ليس المهم هو التصديق •

وإذا كانت الكتب اللاحقة مصدقة للكتب السابقة ، فما فائدة الكتب اللاحقة ؟ فائدة الكتب اللاحقة أمران :

أولا : أنها تذكر من سها عن الكتب السابقة •

ثانيا : أنها ستأتى بأشياء تناسب التوقيتات الزمنية ، تعدل فى بعض الأحــــكام •

---

(١) سورة آل عمران ، آية : ٥٠ .

العقائد لا تبديل فيها ، القصص لا تبديل فيه . إنما التعديل فى بعض الأحكام . وهى تحليل بعض ما حرم على بنى إسرائيل . ولله حكمة فيما يحرمه على الناس وحكمة فيما يحله لهم .

إياك أن تفهم أن كل شىء يحرمه الله فهو ضار ، فقد يحرم الله لشىء آخر ، كالأدب مثلا ، وهو الالتزام والتعبد .

لا تقل : ما هو الضرر الذى جعل الله تعالى يحرم كذا وكذا ؟

من الذى قال لك : إن الله لا يحرم إلا الضار فقط ؟ هو يحرم الضار وغير الضار ، لحكمة ليست هى دفع الضرر ، ولذلك قال تعالى :

﴿ فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم ﴾ [1] .

فها هى ذى الطيبات حرمها الله تعالى على بنى إسرائيل عقوبة لهم ، وليس للضرر . إذن التحريم ليس ضرورياً أن يكون للضرر .

أما المسيح فجاء ليرفع التحريم عن بعض المحرمات . والتى جاءت فى قوله تعالى :

﴿ وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ﴾ [2] .

ثم أعاد المسيح تذكيرهم بأنه جاء من عند الله بآياته رسولا ، فقال :

﴿ وجئتكم بآية من ربكم ﴾ .

ومجموع هذه الأوامر التى تقدمت تلفتكم الى أننى كبشر لا أستطيع أن أجىء بها ، فيجب أن تلتفتوا الى أن الذى أرسلنى ، وله طلاقة القدرة فى خلق النواميس ، جاء بها على يدى .

---

(١) سورة النساء ، آية : ١٦٠ .

(٢) سورة الانعام ، آية : ١٤٦ .

إن الرسول والمرسل إليهم مشتركون فى أنهم مربوبون لإله واحد ، وهو الذى تولى تربيتهم ، والتربية تقتضى إيجاداً من عدم (بفتح العين والدال) ، وامداداً من عدم (بضم العين وإســكان الدال) ، وتقتضى رعاية قيومية ، وأنا لم أصنع ذلك لأكون سيداً عليكم ، ولكن لأنى أنا وأنتم مشتركون فى العبودية لله وحده .

* * *

هـذا صراط مسـتقيم

العبودية لله هى الصراط المستقيم :

والإشارة فى قوله تعالى :

﴿ هذا صراط مستقيم ﴾ (١) .

الى اجتماع البشر على عبوديتهم لله وحده .

ومعنى ﴿ صراط مستقيم ﴾ . أى غير ملتو ، لأن الطريق إذا التوى فقد انحرف عن الهدف .

ولكى تعرف أن الكل يمشى على صراط مستقيم واحـد فانظر الى الدائرة ، الدائرة لها محيط ، ولها مركز ، المركز هو الذى نضع فيه سن الفرجار لنرسم الدائرة . وبعد ذلك نصل من المركز الى المحيط بأنصاف أقطار . فكلما بعدت عن مركز الدائرة اتسع الفرق ، وكلما اقتربت من المركز تلاشت الفروق .

* * *

الاجتماع حول العبودية هو الوحدة :

وكلما كان الخلق جميعاً عند المركز الواحد يتفقـون أم يختلفون ؟ بالطبع يتفقون . ومتى يختلفون إذن ؟ يختلفون عندما يبتعدون عن المركز . ولذلك لا تجد الناس أهواء ، ولا تجدهم شيعاً ، إلا إذا ابتعدوا عن المركز الجامع لهم ، والمركز الجامع لهم هو العبودية لإله واحد .

حتى فى الأمر الحسى ، إذا نظرت الى الأقطار تجدها قبل المركـز بقليل تداخلت فى بعضها الى أن يصير شيئاً واحداً لا انفصال بينها أبداً . وهكذا الناس حين يلتقون عند مركز عبوديتهم لإله واحد .

---

(١) سورة آل عمران ، آية : ٥١ .

ولذلك نجد الدائرة التى نصف قطرها عشرة سنتيمترات ، نجدها من عند المحيط سنتيمترين ، فإذا وسعتها الى متر فقد اتسعت •

* * *

منطق عيسى عليه السلام :

ذلك هو منطق عيسى عليه السلام ، منطق عيسى فى المهد أنه قال : إنى عبد الله • وبعد ذلك قضية التكليف ، قضية القمة أنه عبد الله • وقضية الرسالة • وهى نقل مراد الله الى خلق الله ، حتى يبنوا حركة حياتهم على مقتضى مـــا أنزل الله

طبعاً حينما يأتى الرسول بمنهج من عند الله ليحمل الناس جميعاً على سلوك هذا المنهج ، فإنه يحدد حركة حياتهم بافعل كذا ، ولا تفعل كذا •

افعل كذا ، قد يجد فيها مشقة ، لأنها تلزمه بعمل ثقيل عليه ، لا تفعل كذا ، فيها مشقة ، لأنها تبعده عن عمل كان يحبه ، المرء فى الأحـــداث بين اثنين : عمل يشق عليه فيجب أن يجتنبه ، وعمل يشتهيه فيجب أن يقترب منـــه •

المنهج يقول : افعل هذا ، ولا تفعل هذا • هناك مشقة فى أنه يفعل كذا ، ومشقة أخرى فى أنه يبتعد عن كذا •

* * *

آفة النـــاس جهل الهدف :

كل الناس لا يحاولون فهم الغاية الأصـــيلة • يأتى أنصـــار الشر ولا يعجبهم حمل نفوسهم على مرادات خالقهم • فمـــا يقال : افعلوه • يقولون : هو ثقيل علينا وما يقال : لا تفعلوه • يقولون : نحن نحبه ، ولا نستطيع تركـــه •

إذن يحدث انقسام ، لأنهم لم يحددوا هدفهم فى الوجود ، لأن كل حركة تعرف أنها حسنة أو غير حسنة من أنها توصلك الى هـدفك أو لا توصلك • فإن أوصلتك الى هدفك فهى حسنة ، وإن لم توصلك فهى قبيحـــة •

إذن الهدف هو الذى يجب أن يعرف • التلميذ يذهب الى المدرسة ليتخرج ، ويصبح كذا وكذا • مـا هدفه ، ننظر فى سلوكـه ، نجـده مجتهداً ، فهو إذن يقرب من الهدف ، نجده يكسل ويلعب ، فهو يبتعد عن الهدف • لابد من تحديد الهدف ، لتعرف إذا كان العمل صالحاً أم غير صـــالح •

وآفة الناس أنهم لا يحددون هدفهم ، لذلك يعتبرون غـير الهدف هدفا • وما داموا يعتبرون غير الهدف هدفا فإن حياتهم تضطرب •

فالذى يعتبر أن الحياة هى الهدف ، يريد أن يحقق أكبر قدر من اللذة ، لأنها هى الهدف ، والذى لا يعتبر الحياة هى الهدف ، بل يعتبرها مرحلة ، يرى الهدف هو لقاء الله ، والدار الآخرة • وحين يعمل ، يعمل للهـدف •

فالأول لا يقبل إلا على ما تشتهيه نفسه ، ولا يبعد إلا عما يتعبه ، إذن ما يفسد السلوك هو الجهل بالهدف • وحين يوجد الهدف ننظـر فى العمـل •

فإن كان يقرب من الهدف فهو الخير ، وإن كان يبعد عن الهـدف فهو الشر • يجب أن يعلم الناس أنهم يستقبلون كثيراً من الأحداث بمـا يناقض الهـدف •

مـا دام الهدف أن نلقى الله ، فيأتى واحـد مات له حبيب ، فلماذا نجده يحزن على وفاته ؟

لماذا يحزن عليه وقد قصر الله عليه الطريق الى لقائه •

إنه حزين على نفسه ، لأنه سيستوحش منه ، كان يؤنسه ، كـــان ينفعه ، أمـــا من أجله فلا •

إذا كانت الغاية أن نذهب الى الإسكندرية ، فمرة أذهب ماشـــياً ، ومرة أركب حماراً ، ومرة أركب حصاناً ، ومرة أركب ســيارة ، ومـــرة أركب طائرة ، كل ما يقربنى من الهدف لا أحزن منه ، إنما أحـــزن حين أجد صاحبى غير موفق لخدمة الهدف •

يموت شاب فيحزن عليه أهله لأنه لم يتمتع بالحياة ، نقول لهم : إن الله قد جعله يقفز الخطايا ، فما الذى يحزنكم ؟

إن أحسنا استقبال ما يقضى الله به فى خلقه عرفنا أنه حكيم ، وأنه رحيم ،وأن كل شىء منه يجب ألا نفهمه خارجاً عن الحكمة •



مريم ودلالة الذكر والأنثى

ونجيب عن سؤال سألنيه أحد المحافظين ، لأن ورقة أعطيت لـه من أحد المواطنين بهذا السؤال :

لماذا قال الله تعالى :

﴿ (يا مريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين) ﴾ [1] • ولم يقل : واركعى مع الراكعات ؟ هذا هو السؤال •

وإجابة عن هـذا السؤال نمهـد تمهيداً بسيطاً يشـير الى فلسفة الأسماء ودلالتها على مسمياتها •

والأسماء : ألفاظ تعين مسماها ، والمسميات مختلفة ، فمنها الجماد ، ومنها النبات ، ومنها الحيوان • ومنها الأسماء التى تدل على موجـودات فى عالم الغيب ، كالجن والملائكة ، وكل ما غيب الله •

وهذه الأسماء تدل على معانيها ، وقد هدى الله سبحانه وتعـالى البشر إليها بما علم آدم من الأسماء ، لأنه لو لم يعلم آدم الأسـماء . فكيف كان يعبر عن معطيات الأسماء لمسمياتها ؟

إذن فلابد أن يوجد لكل شيء اسم ، حتى نستطيع حين نتفاهم على الاسم أن نذكر لفظاً واحداً موجزاً •

ولو لم يذكر هذا اللفظ الواحد الموجز للدلالة على المسمى ، فكيف كان يفعل الإنسان حين يريد التفـاهم على مسمى الجبل ، أيأخذ الجبل بيده ليشير اليه أمامه ؟ أم يكفى أن ينطق بكلمة جبل ، لنستحضر الصـورة الخاصة بهـذا المسمى ؟

إذن فالأسماء وتعليمها لنا أزاح عنـا عبئاً كبيراً من التفاهم ، ولولا

---

(١) سورة آل عمران ، آية : ٤٣ .

ذلك لما استطعنا التفاهم على شئ إلا إذا واجهنا الشئ وأشرنا إليه • كلمة جبل ، وكلمة صحراء ، وانجلترا ، وأمريكا ، كلمة واحدة تجعلنى أستحضر معنى المسمى على الفور ، وتريحنى من مشكلة مستعصية لا حل لها إلا مواجهة المسمى ، والإشارة اليه ، حتى يفهم المخاطب ما أريد •

إذن فلابد من وجود الأسماء للمسميات ، وهذه الأسماء فروع وجود الإنسان المتفاهم بها ، والإنسان أصله من آدم ، وكلمة آدم حين نتكلم عليها نجدها مذكرة •

ما معنى مذكرة ؟ وما معنى المؤنثة المقابلة لها ؟

معنى هذا أنه ستكون ذكورة وأنوثة يخرج منهما نسل • إذن فلابد من التمييز بين نوعين لجنس واحد • فجنس بنى آدم منه نوعان : ذكر فأنثى ، ومن هذين النوعين ينشأ التكافؤ •

ولكن العجيب هو أن الله سبحانه وتعالى حين سمى آدم ، ونطقناه اسماً مذكراً ، وسمى حواء ، ونطقناه أسماً مؤنثاً ، جعل الاسم الأصيل الذى وجد منه الخلق « نفس » فقال :

❋ (خلقكم من نفس واحدة) ❋ [1] •

نفس واحدة وهى آدم ، ثم مسماه بكلمة نفس ، وهى مؤنثة ، وليس معنى هذا أن التأنيث أقل من التذكير ، وإنما هو دلالة على وضع المسميات فى مواضعها الحقيقية فقط •

إذن فمرة يطلق على الإنسان منا كلمة نفس ، وهى مؤنثة ، (خلقكم من نفس واحدة) لا واحد • وحين يتكلم الله تعالى كلاماً آخر يقول :

❋ (يا ايها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى) ❋ [2] •

---

(١) سورة النساء ، آية : ١ .

(٢) سورة الحجرات ، آية : ١٣ .

الناس مجموع الذكر والأنثى ، فقد سماه مرة بلفظ مذكر ، وسماه مرة أخرى بلفظ مؤنث ، ثم جمعهما هنـــا .

ولذلك يؤكد لنا الحق أن وضع الأسماء لمسمياتها ، إنما كان لنتعارف بهـــا ، فقال تعالى :

﴿ وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ﴾ (١) .

والتعارف هو كما يكون عند الرجل أولاد كثيرون ، فيســـمى هـــذا باسم وهذا باسم ليتعارفوا .

والعجيب العجيب فى الآية قوله تعالى : **﴿ وجعلناكم شعوبا ﴾** جمع شعب ، وهو مذكر (وقبائل) جمع قبيلة وهى مؤنثة .

انظروا الى قوله عالى :

﴿ والعصر . إن الإنسان لفى خسر . إلا الذين آمنوا ﴾ (٢) .

أما اللائى آمن فداخلات فى الذين آمنوا .

ولماذا أدخل المؤنث فى المذكر ؟

لأن المذكر هو الأصل ، والمؤنث جـــاء فرعاً منه ، والفـــرع يدخل فى الأصل ، فالمؤنث يدخل فى المذكر ، يدخل معه فى الأمـــور المشـــتركة فى الجنس ، كما فى قوله تعالى :

﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم ﴾ (٣) .

وهو رب المذكر والمؤنث أيضاً .

وبعد ذلك فى الأمر الخاص بالمرأة أتى بها صريحة فى التأنيث :

﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ﴾ (٤) .

---

(١) سورة الحجرات ، آية : ١٣ .
(٢) سورة العصر ، آية : ١ — ٣ .
(٣) سورة البقرة ، آية : ٢١ .
(٤) سورة الأحزاب ، آية : ٣٦ .

وذلك لأن المسألة خاصة بالاثنين • رجل وامرأة ، وتفريق بالطلاق بينهما • وقال تعالى :

﴿ يا نساء النبى لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض وقلن قولاً معروفا ﴾ [1] •

وكلها جاءت بلفظ المؤنث •

إذن فهو حين يأتى بشىء يتعلق بالمرأة ، يأتى باللفظ المؤنث ، وإذا كان المعنى عاماً يشترك فيه الذكر والأنثى يأتى باللفظ المذكر ، كما قال تعالى :

﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو انثى وهو مؤمن ﴾ [2] •

وإنما يدمج الله تعالى المراة فى الرجل لأنها مبنية على الستر والحجاب مطمورة فيـــه ، داخـــلة فيه •

فإذا قال : ﴿ **واركعى مع الراكعين** ﴾ [3] فالركوع ليس خاصاً بالمـــرأة حتى يقال : اركعى مـــع الراكعـــات • وإذا قـــال : اركعى مع الراكعات ، وهى فى محرابها ، والناس يصلون ، هل تمتنع عن الصـــلاة لأنه لا يوجـــد راكعات ؟

إذن فقوله (مع الراكعين) أعم لأنه أدخل الراكعات فى الراكعين ، ولو قال : الراكعات ، لم تدخل الراكعين فى الراكعات •

---

(١) سورة الاحزاب ، اية : ٣٢ •

(٢) سورة غافر ، آية : ٤٠ •

(٣) سورة آل عمران ، اية : ٤٣ •

اعبـــدوا الله

ذكر المسيح — وشأنه فى ذلك شأن جميع الرسل — القضية الإيمانية الجامعة المانعة فى قوله تعالى :

﴿ إن الله ربى وربكم فاعبدوه ﴾ [1]

يعنى : أنا وأنتم سواء فى مربوبيتنا لله الواحد ، أنا لم آت إليكم لأتميز عليكم بشىء فيما يتعلق بالعبادة .. نحن سواء فيها .. فهو ربى وربكم . . والصراط المستقيم هذا هو . . وهو أقصر الطرق الموصـــلة الى الغـــاية .

معنى الصراط هو ما يوصل الى الغاية .. الطريق يستلزم الغاية ، فإذا قيل : هناك طريق ، فلابد أن تتحدد الغاية أولا .. والغـــاية هى عبـــــادة الله .

* * *

حقيقة العبادة :

العبادة هى : إطاعة العابد ، لا تظنوا أن العبادة هى الصلاة والصوم والزكاة والحج وما أشبه ذلك من الأفعال ، كما يقول خصوم الإسلام . لا . إنما هذه الفرائض وسائل شحن للطاقة الإيمانية فى النفس والقلب ، ليقبل الإنسان على العمل الخاص بعمارة الحياة .

العبادة : كل عمل يؤدى الى سعادة الناس وعمارة الكون كما يريد الله سبحانه وتعالى . . العبادة بالمعنى الضيق نقولها فى الفقه . نقول : باب العبادات ، وباب المعاملات . . ولكن الحقيقة أن كل شىء يأمر به الله تعالى هو عبادة إلا أن العبادة منها ما يصلك بالمعبود ، لتأخذ الشـــحنة

---

(١) سورة الزخرف ، آية : ٦٤ .

الإيمانية منه ومنها ما يصلك بالحياة على هدى ونور مما استقبلته من تلك الشحنة الإيمانية . استمع الى قوله تعالى :

*** (إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيـع * (١) .**

فقوله تعالى : (اسعوا) أمر ، وهـذا الأمر يوصـلنى الى أين ؟ يوصلنى الى الصلاة . ويخرجنى من أين ؟ يخرجنى من البيع .

وإذا كان الأمر بالسـعى الى الصـلاة يخرجنى من البيـع ، أفلا يخرجنى من الزراعة ؟ أفلا يخرجنى من الصـناعة ؟ أفلا يخرجنى من العلم والتعليم ؟ نعم يخرجنى ، فلماذا خصص البيع إذن ؟

لأن البيع هو قمة النفعية العاجلة ، فالذى يحـرث ويزرع ينتظـر شهوراً طويلة حتى تخرج الثمرة . أما البيع فثمرته عاجلة . فإذا تركت الثمرة العاجلة فاترك المؤجلة من باب أولى .

ولأن البيع هو مبادلة السلع بأثمانها . والسـلع هى النهاية لـكل عمل ، ولماذا لم يقل : وذروا الشراء ؟

البيع أدق فى الأداء ، فالمشترى يشترى وهو كاره ، وقد يـكون المشترى فى صفقة الشراء ، فيسمع الأذان ، فيتخـذ منه ذريعـة لترك الصفقة أما البيع فالنفس تحبه ، وتتبعه ، لأنه كسب عاجل . والشراء فيه دفع ثمن انتظاراً لكسب ، أما البيع فهو أخذ حاضر وعاجل .

إذن فقـد أخرجنى الله من نهايات الأعمـال ، وهى مبادلة السـلع بأثمانها . وبعد الصلاة قال تعالى :

*** (فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغـوا من فضل اللـه) * (٢) .**

---

(١) سورة الجمعة ، آية ٩ .
(٢) سورة الجمعة ، آية : ١٠ .

هذا أمر ، وذاك أمر ، اســعوا الى ذكر الله أمــر ، وانتشروا فى الأرض أمر ، وهمــا عبــادة •

انظروا الى الدقة فى قوله تعالى : (فانتشروا فى الأرض) • يعنى : انساحوا فى الأرض ، فى مختلف نشاطات الحياة • • لأن كل حركة من حركات الحياة هى عبادة مأمور بها •



دعـــوة المســـــيح

احتياط المسـيح :

لقد حسم المسيح أمر العقيدة ، واحتاط ضـد من يفسرون ولادته بلا أب ؛ وضد ما سيتقولونه عليه فقال :

* ﴿ إن الله ربى وربكم فاعبدوه ﴾ * (١) .

احذروا أن تقولوا عنى شيئا آخر ، لأن الله ربى وربكم ، ثم جـاء بالمنهج وهو الصراط المستقيم .

والله تعالى يقول عن المسيح :

* ﴿ فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصارى إلى الله ﴾ * (٢) .

وهذه الكلمة تدل على أن كل صاحب فكرة ، وكل صاحب مهمة ، وكل صاحب هـدف لابد أن يكون يقظ الأحاسيس ، لأنه حـين يأتى بالفكرة — خاصة الدينية — سيخرج الناس من الظلمات إلى النور .

ولماذا يعيش الناس فى الظلمات ؟ ولماذا لا يعيشون فى النـور من أول الأمـر ؟

يحدث ذلك لأن هناك من يستفيدون من الظلام . وحين يسـتفيد البعض من الظلام فسيكون هناك ظالم ومظلوم ، فمن أخذ خير الدنيا ، وعربد فيها ، ساعة يسمع كلمة تهديه إلى منطق العدل فإنه لا يحبها ، بل يكرههـا .

من هنا لابد أن يكون الداعية يقظاً ، لأنه حين يسر أناساً فسيغضب أناساً آخـرين .

---

(١) سورة آل عمران ، آية : ٥١ .
(٢) سورة آل عمران ، آية : ٥٢ .

إذن فلا بد أن يكون يقظاً ، يقظاً بأحاسيسه • وكلمة (أحس) تدل على الحواس الخمس • النظر والسمع والذوق واللمس والشم ، فالمراد إذن أن نعمل كل الحواس ، حتى يدرك الداعيــة من الذى يرتجف حين يسمع دعوة الخير ، ومن الذى يطمئن •• من الذى تتغير سحنته ، ومن الذى يستبشر •

إذن لابد أن يكون الداعى كله أحاسيس ليـدرك الحقيقة • فلمـا واجههم المسيح بمنهجه أحس أن أنصار الظلم والبغى والظلمات لا يعجبهم كلامه • أحس منهم الكفر • كان كله يقظة وانتباهاً •

ماذا صنع بعد ذلك ؟

أراد أن ينتدب جماعة يعينونه على الدعوة فقال :

﴿ من أنصارى إلى الله ﴾

المسألة تتطلب معركة ، وهذه المعركة تتطلب تضحية ، تضحية بالنفس وتضحية بالنفيس ، فلابد أن يستشير من يجد فى نفسه الاستعداد للعون لم يقل : يا فلان ويا فلان ، ساعدونى ، • وإنما هو يريد أن يكون المعين له معيناً بإقبال نفسى • فقال :

﴿ من أنصارى إلى الله ﴾

والأنصار جمع نصير • والنصير هو المعين لك على بغيتك ، عـلى تنفيذ الغاية ، أى : من ينصرنى نصراً تصير غايته إلى الله وحده ، لا إلى أهواء البشر ، لأنه قد يدخل معه واحد من أهل الغنيمة ، أو واحـد من أهل الجاه ، ولكنه يريد النصرة لله وحده •

ولذلك قلنا : إن رسول الله صـلى الله عليه وسلم حين بايعه أهل المدينة عند العقبة قال : « خذوا ونأخذ » • فقالوا له : إذا نحن وفينـا بهذا فماذا يكون لنا ؟ أقال لهم : إنكم ستمتلكون الأرض ؟ أقال لهم : ستنتصرون على أعـدائكم ؟ لا • بل قال لهم : « لكم الجنـة » •

وذلك لأنه لو قال لهم : إنكم ستملكون الأرض ، أو تنتصرون على عدوكم ، فربما مات واحد منهم ولا يرى هذا الجزاء ، ومن هنا ردهم إلى الجزاء الذى يراه كل إنسان . وهو الغاية الأخيرة .

انصـــار المســـيح :

إذن المسيح حين قال : ﴿ من انصارى إلى الله ﴾ فمعنى هذا : من يعيننى معونة غايتها الله . وهل هذا هو المعنى الذى تعطيه الآية فقط ؟

لا . إنما آخذ المعنى المناسب لعقلى ، أما مرادات الله تعالى من كلامه فلا تتناهى ، ولا تدخل تحت الحصر .

والنصير ينصر ، والنصر يكون بالإيمان ، كيف ؟ الحق سـبحانه وتعالى يقول :

※ ﴿ إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقـــدامكم ﴾ ※ (1) .

فمنـا نحن نصر الله ، ونصر الله بتطبيق دينـه . ومن الله النصر للمؤمنين الناصرين له ، فالنصر مرة يكون من المؤمن لربه ، ومرة يكون من الرب لمربوبه . والمسيح يقول : من الذى ينصرنى حتى يكون منضماً إلى الله فى النصر .

عندى معسكران ، المعسكر الأكبر هو الله ينصرنى . فأنتم انضممتم إلى الله . إذن من أنصارى إلى الله ؟ من يكون نصيرى مع الله ؟ هذا معنى . والمعنى الثانى أن أفرض ﴿ أنصارى إلى الله ﴾ بمعنى ينضم إلى غاية هى الله . والعبارة تصلح للمعنيين : نصر من الله للمؤمن ، ونصر من المؤمن لله .

وكان أنصـــار المســيح هم الحواريون ، حيث قال تعالى :

※ ﴿ قال الحواريون نحن أنصار الله ﴾ ※ (2) .

---

(1) سورة محمد ، آية : ٧ .
(2) سورة آل عمران ، آية : ٥٢ .

وكلمة الحوارى مأخوذة من الحور ، وهـو البياض . وهـم قوم أشرقت فى وجوههم سيما الإيمان ، حتى صاروا منيرين بالإيمان ، ونورهم هذا لا يعنى البشرة البيضاء ، وإنما يعنى إشراقة الإيمان فى نفوسهم .

ولماذا يكون للإيمان إشراق فى النفوس والوجـوه ؟ حتى لو كـان المؤمن أسـود اللون ، فإنك لا تفقد فيه نور الإيمان على وجهه !

لأن الإنسان مكون من أجهزة ، والأجهزة من ذرات ، وكل جهـاز له مطلوبات . فساعة تتجه الأجهزة فى مطلوباتها إلى ما أراده الله يكون هناك انسجام بين الأجهزة جميعاً . وحين تنسجم الأجهزة تصبح النفس منيرة ، أما إذا اختلفت الأجهزة باختلاف مطلوباتها وغاياتها ، فهذا يريد كذا ، وذاك يريد كذا وهذا يريد أن يعربد ، وهذا يريد أن يطمئن ، فإن الأجهزة تتصارع ، ويظهر أثر هـذا الصراع على الوجه ، فتراه مظلماً مكفهراً .

أو إن الحواريين قوم بيض المعانى ، ومعانيهم بيضاء مشرقة . هذا جائز أيضـاً .

والنبى محمد صلى الله عليه وسلم سمى بعض صـحابته حوارى رسول الله ، كالزبير بن العوام رضى الله عنه ، وهو من اصطفاه ليكون معه .

* * *

خصائص الدعـاة :

وأنصار الله الذين هم الحواريون ، والدعاة إلى منهجه قالوا :

﴿ **نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون** ﴾ (١) .

أى ننضم إلى الله ناصرين للمنهج . إذن لابد أن يعرفوا المنهج . وهم قالوا : نحن نعرف مطلوبات الله منا . وهى : الإيمان .

---

(١) سورة آل عمران ، آية : ٥٢ .

والإيمان هو : اطمئنان القلب إلى قضية ما .. ولو لم أكن مؤمناً بأن الطريق الذى أسلكه سيوصلنى إلى مطلوبى ما سلكته . لو لم أعرف أن المذاكرة توصلنى إلى النجاح ما ذاكرت ، هذا هو المعنى العام .

لكن إذا أطلق الإيمان مع اطمئنان القلب إلى قمة القضايا وقضية القضايا وهى الإيمان بالله ، فلا بد من معرفة المنهج كله .

والحواريون قالوا : نحن نعرف أسلحة النصير إلى الله . قالوا :

(آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون) .

لأن المفروض أن يبلغ الرسول بلاغه عن الله ، فيشهد عليهم كما قال تعالى :

﴿ لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾ (1) .

جاءوا بالإيمان أولا ، ثم أشهدوا أنهم مسلمون ثانيا ، لأن الإيمان شىء عقدى فى القلب . أما الإسلام فهو الخضوع للأحكام .

مسلمون لمطلوبات الإيمان ، وهى الإسلام ، قل لنا افعل كذا ، ولا تفعل كذا .

نحن آمنا ، وما دمنا آمنا بالله فقد آمنا بمن جاء يبلغنا عن الله . فالمطلوب منك أيها الرسول أن تشهد أننا مسلمون والرسول لا يشهد إلا إذا بلغ كل الأحكام . قال الله تعالى :

﴿ ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ (2) .

قد يكون الإيمان إيماناً بشىء سابق ، أما نحن فقد آمنا بالجديد الذى جاء به عيسى عليه السلام .

إذن فكل رسول جاء بشىء من الله ، والرسول الذى يجىء بعده يبلغ شيئاً آخر ، والعقائد لا تتغير فيها ، والأخبار لا تغيير فيها ، والقصص لا تغيير فيه . أما الأحكام فهى التى يتعلق بها التغيير .

---

(1) سورة البقرة ، آية : ١٤٣ .

(2) سورة آل عمران ، آية : ٥٢ .

خصائص الاتبـــاع :

وكلمة ﴿ **آمنا بما أنزلت** ﴾ تدل على شيء منزل من علو إلى أدنى . ونحن حين نستقبل التشريع بالتقديس نستقبله هكذا لأنه جاء من أعلى إلى أدنى . والله سبحانه وتعالى حين ينـــادي من آمن به ليستمع إلى مناهج الإيمان يقول :

﴿ **قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم** ﴾ (١) .

يعني : ارتقوا وخـــذوا من الله . لا تبقوا في حضيض الأرض . ومعنى حضيض الأرض : أهواء النفوس ، وآراء البشر ، فهذا نزول ، والله يريد منا أن نتعالى إليه . أي نرتفع من مناهج الأرض إلى مناهج الســـماء .

والخاصية الأخرى من خصائص الاتباع هي الاختيار والاقتناع .

فالمتبع عادة يقتنع بمن اتبعه أولا ، ليكون اتباعه إياه صـــادراً عن قيم نفسه ، لأن هناك إنساناً يرغم إنساناً آخر ليمشي معه في طريق ، ولا يصح أن يقال في هذا : إن فلاناً اتبع فلاناً .

لأن معنى من اتبعني أي صار تبيعاً لي بمحض إرادته ، ومحض اختياره ، لأنه إن كان بالقسر والقهر يكون متبعاً له قالباً لا قلبـــاً ، القالب هو الذي اتبع ، أما القلب فلا .

فالإكراه لا يخضع القلب ، وإنما يخضع القوالب . وكذلك قال الله سبحانه وتعالى لرسوله :

﴿ **لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين ۞ إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين** ﴾ (٢) .

---

(١) سورة الأنعام ، آية : ١٥١ .

(٢) سورة الشعراء ، الآيتان : ٣ — ٤ .

أى : لا تظن أن مسألة إخضاعهم مستعصية علينا بالآيات التى تنزل فتخضع أعناقهم • لكن الله لا يريد أعناقاً ، بل يريد قلباً ، يريد من يأتيه طواعيــة واختيــاراً ، يأتيه وهــو قادر عــلى ألا يأتيــه ، يريده طليقا يقول له : تعال • فيقبل عليه •

والخاصية الثالثة أنهم لا يريدون الاتبــاع فقــط بل يريدون أن يشهدوا قالوا : ﴿ فاكتبنا مع الشــــاهدين ﴾ •

أى : لن نتبعك فقط ، ونخــوض معك معركــة الدعــوة فقط ، بل سنحمل بعدك رسالتك • نشهد على أننا بلغنا رسالتك • ولذلك قلنا : إن أمة محمد صلى الله عليه وسلم قد كلفت وصل الرسالة المحمدية •

* ﴿ لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾ *

أى امتدادا لرسالته فيكم •

ولذلك لن تكون رسالات بعدك يا محمد • وإنما الله ائتمنكم على هذه المهمة • فلا رسول بعد محمد •

* * *

المكر السيىء والمكر الحسن :

الأشياء التى يدركها العقل مسماة ، ولها مسميات ، وهذه المسميات تكون أولا بالحس ، لأن الحس هو أول ما يدرك الأشياء من الإنسان . ثم تأتى المعانى •

والمكر نوع من الشجر ، هناك نوع من الشجر تجد فروعه ملتفة حول بعضها ، بحيث لا تستطيع أن تنسب ورقة منها إلى أصلها من الفروع ، ملفوفة ، كثيفة ، هذا هو معنى المكر • أخذنا منها المكر من الرجل ، وهو الرجل الذى يلف ويدور فى معاملتك •

أما إذا كان يلف عليك ليعرف حقيقة من الحقائق فهى الحيلة وليس المكـــر ، كالقاضى الـــذى يكثر من الأسئلة ويدور ويلف عـــلى المتهـــم ليعرف الحقيقة .

إن كان اللف بقصد الضرر فهو المكر ، وإن كان لغير الضرر فهـــو الحيلة . ولذلك قال الله تعالى :

* ﴿ ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله ﴾ * [1] .

إذن هناك مكر حسن ، وهناك مكر سيىء . قال تعالى :

* ﴿ ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾ * [2] .

أى هناك مكر للخير ، ومكر للشر ..

ولماذا يمكر الماكر ؟

الذى يمكر ليدارى نواياه ، فقد يحب وهو مبغض ، ويريد أن يزين لك عملا ليمكر بك ، يزين لك مثلا أن تخرج معه إلى مكان ما ، ويزين لك محاسن المكان ليشجعك على الخروج إليه حينما تهدأ الأنفاس ، وينقطع الناس ، وفى الوقت نفسه يصنع لك كمينا ، ليطلق عليك النار ويقتلك ولا يراه أحـــد .

هذا مكر أراده ليوقع بك ضرراً .

إذن فمن أسس المكر التبييت ، هو حب يخـــدع ليوقـــع فى ضرر ، ما دام يريد أن يبيت . وهذا التبييت يريد من صاحبه ذكاء عظيما ، فربما كان من تبيت له ذكياً فيكشف لأمرك .

والمكر يدل على الضعف ، لأن القوى لا يمكـــر ولا يبيت ، ولذلك لما قالوا : إن كيد المرأة عظيم كما جاء فى القرآن الكريم قلنا : إن هذا الكيد العظيم دليل على الضعف ، لأن القوى لا يخادع .

---

(١) سورة فاطر ، آية : ٤٣ .
(٢) سورة الأنفال ، آية : ٣٠ .

القوى حين يظفر بخصمه فمن الممكن أن يطلقه ، لأن قوته تستطيع اللحاق به فى أى وقت . أما الضعيف فحين يملك قوياً فإنه يقول : هذه فرصة لا تتكرر ، وقال الشاعر :

وضعيفة فـــإذا أصـــابت فرصـــة
قتلت كـــذلك قدرة الضـــعفاء

ولو لم يكن ضعيفا لواجه خصمه دون تعب ولا مكر .

ومن يمكر يعلم أن من أمامه لا يستطيع أن يمكر ، فإن علم منه العقل والذكاء حسب له ألف حساب .

وما دامت المسألة تبييتاً ، فمعناه أن تعلم شيئاً يخفى على الغير ، فإذا أراد خصوم المنهج الإلهى أن يمكروا فعلى من يمكرون ؟

هل الرسول وحده فى المعركة ، أم الله سبحانه وتعالى هو القاهر فوق العبادة .

﴿ والله يكتب ما يبيتون ﴾ [1] .

والله سبحانه وتعالى حين يبيت لكم شيئاً ، فلن تستطيعوا أن تكتشفوه ، فالله خير الماكرين .

وساعة تجد وصفاً لا يوصف الله به فاعلم أنه جاء للمشاكلة . فما دام هذا مكرا وتبييتا فالله تعالى يمكن أن يفعل هذا دون أن تفطنوا إليه ؛ لكن أسماء الله تعالى توقيفيه ، فإذا وجدت فعلا لله فلا تشتق منه وصفا ، ودع الفعلَ يقابلَ الفعل من البشر . فحين يقولُ الله تعالى :

﴿ يخادعون الله وهو خادعهم ﴾ [2] .

فإياك أن تقول إن من أسماء الله تعالى المخادع أو الماكر ، فإذا رأيت

---

(١) سورة النساء ، آية : ٨١ .
(٢) سورة النساء ، آية : ١٤٢ .

فعلا من الله جاء فى مقابلة فعل من البشر ليدلهم على قصور أفعـالهم بالنسبة لأفعاله ، فاعلم أنه جـاء للمشـاكلة فقط ، ليدلهم عـلى أنهم لا يستطيعون أن يخدعوا الله ، ولا يمكروا به . ولا تشتق منه وصفاً . بل يظل الفعل فعلا .

وخير الماكرين يدل على أن هناك مكرا فى الخير كثيرا .. وجاءت هنا لأنهم سيدخلون معركة . ألم يقل : (من أنصارى إلى الله) وكيف يدخلون معركة وعيسى لم يجىء ليحمل السيف لكى يحمى عقيدة ، وانما جاء واعظاً ليدل الناس على العقيدة .

* * *

السيف والعقيـدة :

وهل النصرة تكون بالسيف فقط ؟ لا . بل تكون النصرة بالحجة ، وبالعقل ، ونحن نعلم أن السماء كانت لا تطلب من أى رسول أن يحارب فى سبيل نصرة العقيـدة ، وإنما كانت السـماء هى التى تتولى تأديب المخـالفين :

﴿ فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ﴾ (١) .

ولم يجىء قتال فى بنى إسرائيل إلا حين طلبوا هم أن يقاتلوا فقالوا :

﴿ وما لنا ألا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا ﴾ (٢) .

وأمة محمد صلى الله عليه وسلم طلب منها أن تحمل السيف لتؤدب به من يحولون دون وصول العقيدة إلى الناس ، ليحمى منطقة الاختيار فى النفس الإنسانية ، لا ليفرض عقيدة . ليرفع أيدى الطغاة عن الناس حتى يختاروا ما يريدون .

والإسلام لم ينتشر بالسيف كما يقول أعداؤه ، فلقد بدأ الاسلام بالضعفاء الذين كانوا يفرون بدينهم إلى الحبشة . من الذى حمل أول سيف ليكره أول مؤمن . من الذى حمل السيف ليكره من آمن أولا ؟

---

(١) سورة العنكبوت ، آية : ٤٠ .

(٢) سورة البقرة ، آية : ٢٤٦ .

قضية ... وحجة

ضمان اليقين :

آيات ذكرها الله سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم فى كتابه الكريم ، لتطمئن القلوب إلى الحق الذى جاء من الحق سبحانه وتعالى . فقال :

﴿ ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم ﴾ (١) .

والإشارة إلى الأحداث التى تتصل بمريم والمسيح ، من امرأة عمران ، ومريم ، وعيسى عليه السلام ، كل واحد من هؤلاء يمثل قضية عجيبة ينخرق فيها ناموس الكون ، فهى آيات من الله ، أى عجائب .

وبعد ذلك نقلت إلينا هذه الآيات والعجائب من واقع أحداث عاصرها أناس وعاشوها ، ورأوها .

ثم نقلت إلينا فى قرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فى الذكر الحكيم .

إذن فاطمئنوا الى أن ما وصلكم عن طريق الذكر الحكيم ، وهو القرآن ، إنما حكى واقعا ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وبذلك نضمن صدق الآيات التى جاءت فى الذكر الحكيم بواقع الآيات التى عاصرها الناس وعاشوها .

* * *

مادية اليهود :

ثم يعرض لنا الحق سبحانه وتعالى قضية سيدنا عيسى عليه السلام ، وقضية سيدنا عيسى عليه السلام قضية يجب أن يتنبه إليها العقل تنبها

---

(١) سورة آل عمران ، آية : ٥٨ .

جديدا ، هو أن نعرض وجهة نظر الذين وضعوه فى موضع غير الموضع الذى أراده الله ، ووجهة نظر الذين وضعوه بالموضع الذى أراده الله .

فالمسألة ليست انتصارا منا فى الدنيا على فريق يقول كذا ، وليست انتصارا لفريق من أهل الدنيا علينا يقول كذا ، وإنما هى مسألة لها عاقبة تأتى فى الآخرة . فمن المهم أن نصفيها تصفية تصححها ، وتظهر الحق فيها ، حتى لا يظلم أحد من المجاهدين نفسه .

وسيدنا عيسى عليه السلام جاء على دين اليهودية ، أو طرأ على دين اليهودية ، ودين اليهودية حرف من اليهود تحريفا ينحاز الى الأمور المادية الصرفة ، ويكاد يطغى على عقل اليهود وإيمانهم ويقينهم فى قضية الغيبيات ، فهم ماديون لدرجة أنهم قالوا لموسى عليه السلام :

* (لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة) * [1]

إذن فعظمة الحق أنه غيب ، لأنه لو كان مشهودا محسوسا لحدد وحيد ، وما دام قد حدد وحيد ، فانه سيخلو مكان فى ملكه هو منه هو — إذن فكون الله غيبا هو الجلال والكمال فيه .

لقد صور اليهود الأشياء كلها على أنها حسية ، حتى أمور اقتيات حياتهم وهى الطعام ، أرادها الله لهم غيبا يريحهم فى الدنيا ، فأرسل عليهم المن والسلوى ، غيبا من عند الله ، لم يجتهدوا فيه ، ولم يستوردوه ، ولم يستنبتوه ، ولم يعرفوا كنهه ، إذن فهو غيب ، ومع ذلك تمردوا على الغيب ، مع أنه رزق ساقه الله إليهم ، وقالوا لموسى عليه السلام :

(ادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها) [2] .

يعنى طلبوا الأمور المادية المعروفة لهم ورفضوا الغيبيات ، فكأنهم

---

(١) سورة البقرة ، آية : ٥٥ .

(٢) سورة البقرة ، آية : ٦١ .

قالوا : ومن يدرينا أن المن لا يأتى ، ومن يدرينا أن السلوى لا تمر علينا : إذن فهم قوم لا ثقة لهم فى الغيب •

اذن فهم قوم كل أمورهم مادية ، وما دامت كل امورهم مادية ، فهم فى حاجة الى هزة عنيفة تهز أوصال ماديتهم هذه ، لتخرجهم الى معنى يؤمنون فيه بالغيب •

* * *

الفتنة فى ولادة المسيح عليه السلام :

قانون الماديات أسباب ومسببات ، والحق سبحانه وتعالى أراد أن يخلع عن بنى إسرائيل هذا الفكر المادى ، فجاء بعيسى عليه السلام على غير طريق الناموس الذى يأتى عليه البشر ، فجعله من امرأة دون أب •

كان هذا الأمر الذى أريد به أن يزلزل قواعد المادية عند اليهود ، من الممكن أن يستغل استغلالا يبعد الناس عن المادية ، لكن الفتنة جاءت فى هذه أكثر من تلك ، فقالوا ببنوته للإله •

ما هى الشبهة التى جعلتكم تقولون : إنه ابن الإله ؟

إن كان ذلك لأن وعاء الأمومة موجود ، والذكورة ممتنعة ، وأن الله نفخ بالله : لقلتم إن الله هو الأب ، فنقول :

لو كان الأمر كذلك لوجب أن تفتتنوا فى آدم ، أكثر من أن تفتتنوا فى عيسى عليه السلام ، لأن عيسى عليه السلام فيــه أمومة ولا أبوة ، وآدم لا أبوة ولا أمومة • إذن الفتنة فى ادم أكثر •

وان قلتم : انه نفخ الروح من الله •

قلنا : ان الله سبحانه وتعالى قال فى آدم :

﴿ فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين ﴾ [١] ٠

إذن فالفتنة فى آدم أولى ، فلماذا سكتم منذ آدم الى المسيح ؟

* * *

الفتنة فى إحياء الموتى :

بعد ذلك نأتى الى قضية أخرى ، هى قضية وفاته أو توفيه ، لماذا فتنتم فيها إذن ؟

يقولون : لأنه يحيى الموتى ٠

نقول : ولماذا لم تفتنوا بإبراهيم حين قال له ربه سبحانه :

﴿ فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا ﴾ [٢] ٠

فالفتنة فى إبراهيم كذلك ٠

وموسى عليه السلام ، ألم يجئ بآية هى العصا ، لم يحى ميتا كانت له حياة ، بل جعل الحياة فيما ليس له حياة ، وهى العصا بأمر الله ٠ وأصبحت العصا حية تسعى ٠٠ إذن فالفتنة كان يجب أن تكون هنا أيضا كما هى فى المسيح عليه السلام ٠

* * *

---

(١) سورة الحجر ، آية : ٢٩ ٠

(٢) سورة البقرة ، آية : ٢٦٠ ٠

قضية إيناس البشر :

قالوا : ان الله تعالى وهو غيب ، أراد أن يؤنس البشرية بصورة بشرية يتجلى فيها ، فجاء بعيسى عليه السلام لذلك .

نقول : هـذه القضية نعرضها بالعقل بدون عصبية ، وبـدون حساسية . فالله تعالى قد صنع صورة تعطى صورة الإله .

وعيسى عليه السـلام أنتم تقرون وتقولون : انه كان طفلا ، ثـم تدرج فى المراحل ، حتى صار كبيرا .

﴿ ويكلم الناس فى المهد وكهلا ﴾ [1] .

﴿ فأشارت اليه قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا ﴾ [2] .

فأى صورة من صـور حياته المرحلية تمثل الله سبحانه وتعـالى لتؤنس البشرية ؟

ان كانت صورته وهو طفل ، فقد نسيتم صـورته وهو فى دور الكهولة . فالله على أى صورة من هاتين الصورتين إذن ؟

أم هو على كل هذه الصور ؟

ان كان هو الله على كل هذه الصور ، فالله على هذا أغيـار ، أى يتغير ، من طفل الى فتى الى كهل .

ثم نقول لهم :

الله أراد أن يجعل صورته فى بشر ليؤنس الناس بالإله ، فما هى المدة التى عاشها المسيح فى الدنيا بين البشر ؟ ثلاثون سـنة ، إذن الله قد آنس الناس بنفسه ثلاثين سنة فقط .

---

(١) سورة آل عمران ، آية : ٤٦ .
(٢) سورة مريم ، آية : ٢٩ .

وكم عمر الكون قبل المسيح ؟ انه ملايين السنين .

فى هذه الملايين من السنين الماضية ، ترك الله خلقه بلا إيناس ، وبدون ان يبدو لهم فى صورة ، ثم ترك خلقه بعد المسيح بلا صور ، ورب مثل هذا ، رب ظالم . ظالم لأنه آنس خلقه ثلاثين سنة وترك الناس قبل ذلك وبعد ذلك بدون إيناس ولا صورة بشرية .

* * *

قضية الصلب :

أنتم تقولون : انه صلب . وأنتم معذورون ، لأن الله سبحانه وتعالى عذركم ، انظروا الى أدب القرآن حين عرض لهذه القضية فقال سبحانه وتعالى :

﴿ وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم ﴾ (١) .

جعل لهم عذرا فى أن يقولوا : صلب ، أو قتل . وكان عليهم أن يتلمسوا فى الإسلام حلا لهذه المشكلة ، فجاء الإسلام ليقول : (وما قتلوه وما صلبوه) .

وذلك لأن الصلب فيه قدرة من الصالب على المصلوب ، فكيف ينقلب الإله مقدورا عليه من مخلوق ؟

حين نقول : انه لم يصلب فإننا نكرمه ونجله ، فالإسلام جاء ليصفى هذه العقائد كلها ، حتى عند الناس الذين حرفوها .

---

(١) سورة النساء ، آية : ١٥٧ .

المبـــاهلة

هذه القضية الجدلية حدثت أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والحق سبحانه وتعالى يعرضها علينا ، ليصفي المسالة ، وليخرج المسلمين واليهود والمسيحيين من هذه البلبلة .

هذه مسالة شغلت الناس ، وهناك مودة بيننا ، فى أننا نشترك فى الاعتراف بالسماء ، وكان لهم جدل مع اليهود ، ولهم جدل مع رســول الله صلى الله عليه وسلم ، ولهما معا جدل مع الرسول صلى الله عليــه وســلم .

اليهود يقولون : ليست النصارى على شىء .

والنصارى يقولون : ليست اليهود على شىء .

واليهود يقولون : إبراهيم كان يهودياً .

والنصارى يقولون : إبراهيم كان نصرانياً .

هذا هو الجدل بينهما . أما الجدل المسيحى فيظهر واضحاً فى قضية وفد نجران الى الرسول صلى الله عليه وسلم .

لما جاء هذا الوفد الى المدينة ، وكان فيهم الســيد ، والعاقب ، والأسقف وغير هؤلاء من كبراء الملة النصرانية ، أرادوا أن يتكلموا فى مسألة عيسى عليه السلام ، فقال لهم رسول الله : كذبتم . هو عبد الله ورسوله . ثم قالوا له : أيوجد ابن بلا أب ، فنزلت الآية :

* ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقــه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾ * [1] .

والحجة فى آدم أقــوى ، لأن المســيح بلا أب ، أما آدم فبلا أب ولا أم .

---

(1) سورة آل عمران ، آية : ٥٩ .

ثم قال لهم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم : أتعلمون أنى رسول الله ، وأنى نبى هذه الأمة ؟

فقالوا : أنظرنا غدا نتكلم فى هذه .

فلما جاءوا من الغد قال لهم : آمنوا ، فلم يؤمنوا .

وحين رفضوا الإيمان ، ورفضوا كلمة الحق فى عيسى عليه السلام ، علم الحق سبحانه وتعالى أن هذا الجدل لا ينتهى ، والله سبحانه يريد له أن ينتهى .

والله سبحانه وتعالى يعلمنا الأدب الرفيع فى القرآن حين نريد أن ننهى الجدل بيننا وبين غيرنا فى المسائل الكبرى . فالقرآن حين يعرض لقضية حق فى مواجهة قضية باطل ، فانه لا يصدم أهل الباطل بأنهم مبطلون من أول الأمر ، بل يقول لهم :

﴿ وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين ﴾ (١) .

واحد منا ضال ، وآخر مهتد ، لا نقول نحن ولا أنتم ، لأن قضيتين متناقضتين لا يمكن أن يجتمعا .

هيا نحن وأنتم نخرج الى مكان ضاح ظاهر ، وليأت كل منا بأبنائه ونسائه ونفسه ، ثم نبتهل الى الله تعالى أن يجعل لعنته على الكاذب منا أو منكم .

هل هناك عدالة أسمى من هذه .

﴿ فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين ﴾ (٢) .

ما دمنا سندخل فى متاهات فإن الله يقول : فان حاجوك من بعد ما

---

(١) سورة سبأ ، آية : ٢٤ .

(٢) سورة آل عمران ، آية : ٦١ .

جاءك من العلم ، وهو القضايا الغيبية ، لأن هذه المسائل لا ينهيها جدل وإنما ينهيها واقع ، واقع يرد الأمر الى الإله الحق .

فقل تعالوا ، ندع نحن أبناءنا وتدعون أبناءكم ، وندع نحن نساءنا وتدعون نساءكم ، وندع نحن أنفسنا ، وتدعون أنفسكم ، لأن هذه هي القرابة القريبة التي تهم كل إنسان حتى لو لم يكن رسولا .

هاتوا أحبابكم الذين يعزون عليكم وهيا نبتهل الى الله .

والبهلة بفتح الباء وضمها : اللعنة . نقول : يارب لعنتك على الكاذب منا .

والذى يستطيع أن يمضى اللعنة هو الإله الواحد ، أو الآلهة المتعددة إن كان أنصار الإله الواحد صادقين لعن الاله الواحد أصحاب الآلهة المتعدد ، وان كان العكس فالعكس .

إلا أن البهلة لما كانت ضراعة الى القوة التى تريد أن تتصرف فى الكون لتنهى الخلاف ، وهى القوة القاهرة ، صارت البهلة لمطلق الدعاء . نبتهل الى الله : ندعو الله .

ولما طلب منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك طلبوا منه ان ينظرهم الى غد .. ثم أرسلوا منهم من ينظر لهم ماذا سيفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم . هل هو مستعد لهذا الأمر حقا ، أم أنه يهدد فقط .

ثم وجدوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جاء ومعه الحسن والحسين ، ووراءه فاطمة وعلى . إذن فهو مستعد . وحينئذ رفضوا ، وقالوا : والله ما باهل قوم نبيا إلا أخذوا ، فرغبوا فى الهدنة .

ساعة ما نقول : اللعنة منك يا إله يا قادر على الكاذب ، فلن يقبل على المباهلة إلا من كان عنده يقين .. أما من ليس له يقين فلن يقدم عليها .. ولهذا رجعوا عن المباهلة . وقالوا : نتفق على أنك لا تغزونا ، وندفع لك كذا وكذا .

إذن امتنعوا عن المباهلة .. وامتناعهم عن المباهلة ، وإقبال رسول الله صلى الله عليه وسلم عليها يدلنا على أنهم غير واثقين ، وهو صلى الله عليه وسلم واثق .

ودعوة الأبناء والنساء فى المباهلة إنما كانت لأنهم كانوا يأخذونهم معهم فى الحرب ، لأنهم أعز شىء لديهم ، وكانوا يخجلون من الفرار ، وللخوف من إذلالهم من بعدهم ، فهم يريدون عند الهزيمة أن يقتلوا جميعا ، ولا يسلموهم للأعداء .

* * *

واذا أردنا نحن الآن أن ننهى الجـدل فى هذه المسألة فلنفهم قول الحق سبحانه وتعالى :

*** ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون * الحق من ربك فلا تكن من الممترين * فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقـل تعالوا نـدع ابناءنا وابناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين ﴾ *** (١) .

الحق من ربك . أى : ان الحق جاءك من جهة الربوبية . لا تكن من الممترين ، أى : الشاكين فى هذه القضية . حاجك : جادلك ، وهو يأتى بحجة وأنت تأتى بحجة . والحجة هى : الدليل على المطلوب . والعلم هو العلم الذى جاء من الإله الحق .

* * *

*** ﴿ إن هذا لهو القصص الحق ﴾ *** (٢) .

كلمة القصص ليست تعنى : أحدوثة ، أو حكاية ، هذا هو المراد

---

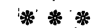
(١) سورة آل عمران ، الآيتان : ٥٩ ، ٦١ .

(٢) سورة آل عمران ، آية : ٦٢ .

فى العرف الأدبى الحديث ، حيث يلعب الخيال دورا واسعا ، ولو فهموا لبحثوا لأنفسهم عن اسم لما يكتبونه من روايات غير كلمة قصص ، لأن كلمة القصص لا تعطى لهم المعنى .

القصص ، من قص الأثر . أى تتبع الأثر . يمشى وراء الأثر حتى يعرف الحقيقة . إذن فالقصة هى تتبع ما حدث ، لا تزيد فيه ، وأنتم تتزيدون بخيالكم .

(وما من إله إلا الله) [١] . إذا جاء القصص من الإله الواحد ، فاطمئنوا الى أنه لا يوجد إله آخر يأتى بالقصص (وإن الله لهو العزيز الحكيم) [٢] الغالب على أمره ، ومع أنه غالب على أمره فهو حكيم فى تصرفه .



(١،٢) سورة آل عمران ـ آية : ٦٢ .

كلمـــة ســـواء

لقد تولى وفد نجران عن المباهلة ، وقد علم الله أولا أنهم لن يقبلوا المباهلة ، فقال :

* (فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين) * (١) .

ومن غبائهم أنهم لم يقبلوها ، فصدق الله العظيم فى قوله : (فإن تولوا) .

واذا انتهت المسألة الى هذا الحد فنحن لا نريد أن نعزل أنفســنا عنهم لمـاذا .

لأنهم مؤمنون بإله .. مؤمنون بالســماء . أهــل كتــاب قال الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم :

* (قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم) (٢) .

كلمة سواء . أى مســتوية ، لا نتوءات فيها ، ولا اعوجاج . .
وما هى عناصر هذه الكلمة :

* (ألا نعبد إلا الله) * (٢) .

وهل يجادل فى هذا أحد ؟

* (ولا نشرك به شيئا *) (٢) .

معنى (نشرك) ندخل معه غيره . لماذا ؟ لأن كلمة الشرك ترفضها العقول السليمة ، لأن هذه الشركة على ماذا ؟ هل الإله الواحد قادر على العمل وحــده ؟ فان كان قادرا فلا لــزوم للشريك . وان كان الشركاء

---

(١) سورة آل عمران ، آية : ٦٣ .
(٢) سورة آل عمران ، آية : ٦٤ .

سيوزعون العمل فى الكون ، فهذا له كذا ، وذاك له كذا ، نقول : اذا أخذ إله شيئا من الكون ، وإله آخر شيئا من الكون ، فالإله الأول ناقص فى العملية الثانية ، والإله الثانى ناقص فى العملية الأولى كل منهما عنده عجـــز .

* (إذن لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض) * (١) .

* (ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله) * (٢) .

ما معنى (أرباب من دون الله) ؟ أن يحلوا لنا ، ويحرموا علينا لأن التحليل والتحريم من الله .. لا يحرم ولا يحلل إلا الله .

ولكنهم تولوا أيضا ، وقرر القرآن الكريم ذلك فقال تعالى :

* (فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) * (٢) .

وهذا دليل على أنهم لن يقبلوا . لماذا يرفضون الكلمة المستوية إذن ، ما دامت منطبقة على متطلبات العقل السليم ؟

لأنهم يريدون أربابا ، ويريدون شركاء ، إذن هم لا يصلحون لقضية الإيمان فجمال قضية الايمان فى أن مصدر الأمر واحـــد ، أى : ان حركاتنا كلها صادرة عن إرادة إله واحد ، لا إرادة إله يقول افعل ، وآخر يقول لا تفعل ، لأنه اذا كان الحال هكذا ، فتلك هى الأهواء ، والحق يقول :

* (ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض) * (٣) .

يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ،

---

(١) سورة المؤمنون ، آية : ٩١ .
(٢) سورة آل عمران ، آية : ٦٤ .
(٣) سورة المؤمنون : آية : ٧١ .

أى لا نأخذ افعل ولا تفعل إلا من الله الواحد ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا ، يحلون لنا ويحرمون من دون الله ، لأن مصدر التحليل والتحريم هو الله وحده ، ولا نشرك بالله شيئا •

فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون • أى : لا نعبد إلا إلها واحدا ، ولا نشرك به شيئـــا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله •

تلك شهادة ، لأن الإسلام هو الذى جاء بالأمر المســتوى الذى لا نتوء فيه •



دين إبراهيم الخليل

لقد وصلت هواية الجدل بأهل الكتاب الى مخالفة البديهة العقلية التى لا يمكن أن يجهلها إنسان . وقد لامهم القرآن الكريم على هـذا النوع من الجدل فقال تعالى :

﴿ يا أهـل الكتاب لم تحاجـون فى إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون ﴾ (١) .

كان اليهود يقولون : هو يهودى . وكان النصارى يقولون : هو نصرانى . .

وكلمة يهودى لها مدلول هو : من ينسب نفسـه الى موسى عليه السلام ، وكذلك كلمة نصرانى لهـا مدلول ، هو من ينسب نفسـه الى المسيح عليه السلام .

ان كنتم تريدون أن تقولوا : إنه يهودى كما أنتم يهود ، نقول لكم : لا .. لأن اليهودية جاءت بعد إبراهيم عليه السلام . وإن كنتم تريدون أن تقولوا : انه نصرانى كما أنتم نصارى نقول لكم : لا ، لأن النصرانية جاءت بعد إبراهيم عليه السلام .

التوراة والإنجيل نزلا بعد إبراهيم ، فكيف ينسب هو الى واحـد منهما ، هل هذا من العقل فى شىء ؟

﴿ ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ (٢) .

التوراة جادلتم فيها وهى أمامكم ، فلم تجادلون فيما لا تعلمون ، ولماذا لا تسلمون بأن الله يعلم وأنتم لا تعلمون .

---

(١) سورة آل عمران ، آية : ٦٥ .
(٢) سورة آل عمران ، آية : ٦٦ .

ثم يحسم الحق سبحانه المسألة فيقول :

* ﴿ ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا ﴾ * (١) .

كلمة حنيف ، تعنى : الدين الصادق المبلغ عن الله . وكل شىء يأتى فى المعانى إنما أصله من المحسات ، بدليل أن الله حين يعبر عن منهجه ومناهج العباد يستعمل كلمتى « الظلمات والنور » فهى أمور محسة .

والحنف : إعوجاج فى الساقين من أسفل ، ثم نقل الى كل أمـر معوج ، أى غير مستو .

وهنا نقول : وهل كان إبراهيم معوجا أم مستقيما ؟

نقول : لا . إبراهيم مستقيم وليس معوجا . ولكنه جاء على وثنية طاغية ، فالعالم معوج ، فهو منحرف عن المعوج ، وما دام قد انحرف عن المعوج فهو المستقيم .

وذلك لأن الرسل لا يأتون على مجرد فساد ، بل يأتون على فساد طاغ وشرس ، لأن الله سبحانه وتعالى ساعة ينزل منهجا ، يجعل فى كل نفس خلية إيمانية ، هذه الخلية الإيمانية تستيقظ مرة ، فتسـتقيم ، وتغفو مرة فتنحرف ، والاستيقاظ ينبهنا حين ننحرف .

فإذا أمعنت النفس فى الانحـراف بقيت نفوس غـير غارقـة فى الانحراف ، بل تستيقظ أحيانا فترد المنحرفـين عن انحرافهم ، وهـو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

فإذا لم يبق فى الأمة مستيقظ ولا آمر ولا ناه ، فقد عم الفسـاد وطغى واستشرى ، وهنا ينزل منهج السماء . هنا جاء إبراهيم وغيره من الأنبياء .

---

(١) سورة آل عمران ، آية : ٦٧ .

ولهذا ضمن الله لأمة محمد أن تبقى الدعوة فى أهل الإسلام ، لأن الرسالات قد انقطعت .

ولذلك أيضا قال الله تعالى :

﴿ إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى ﴾ [١] .

يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم ومن اتبعه .

* * *

---

(١) سورة آل عمران ، آية : ٦٨ .

محتويات الكتاب

الموضـــوع	الصفحة

رقم الايـداع : ٢١٦٦ لسنة ١٩٨٧

الترقيم الدولى : ٢ — ٠٥ — ١٦٠٠ — ٩٧٧

مطابع سجل العرب

هـذا الكتـاب :

قضية ميلاد المسيح بدون أب، وكلامه فى المهد، ووقوف اليهود منه ومن أمه موقفاً عدائياً حتى إنهم حاولوا قتله مصلوباً، فأنجاه الله، ورفعه إليه.. هذه القضية تناولها بالتحليل العميق الدقيق فضيلة الإمام محمد متولى الشعراوى فى هذا الكتاب القيم.. وقد أجاب فضيلته عن كل التساؤلات التى تدور فى الأذهان بشأن مريم والمسيح.. حتى أنه لم يدع شيئاً غامضاً يحتاج إلى توضيح، وقد اعتمد فضيلته على القرآن الكريم فى إبراز حقائق هذه القضية مستلهماً ماورد بشأنها من آيات فى كتاب الله عز وجل، حتى لايدع للشك مجالاً، وللشبهة موضعاً. ولذلك فإنه من أراد أن يلم إلماماً شاملاً بقضية يوم المسيح فليقرأ هذا الكتاب .



تليفون : ٣٥٥٣٨٣٨

١٢٥ قرش

6